الأنا والآخر

المواجهة الحضارية في الإبداع الروائي

دراسة تحليلية في رواية " عذراء جاكرتا "

لـ "نجيب الكيلاني "

د/ كمال سعد محمد خليفة

أستاذ الأدب والنقد المساعد

مقدمة

تعد الرواية من الفنون ذات الخصوصية الإبداعية التي ربما تختلف في كنهها وحمولاتها الفكرية عن غيرها من فنون الإبداع الأُخر، فالرواية " انفتاح على عالم جديد " يحلق في فضاءات أدبية وفكرية، تتسع باتساع هذه الحياة. ومن ثم، تقدم إن لم تكن تصنع أو تضيف خبرات وتجارب إنسانية وحضارية، تضاف إلى خبرات متلقيها.. " الرواية عالم صادق جرئ يحمل كل حساسيات الإنسان، تجاه قضية النقاء الروحي، وتجاه الشفافية الإنسانية التي ربما بات يفتقدها إنساننا المعاصر(١) ".

إذن الرواية ــ كما يدعي البعض وبعض من ادعائهم حقيقة ــ تحمل عبق الإنسان، تحمل رائحته الذكية، إنها أكثر الحالات صفاء وانسجاما مع تفاصيل الحياة.. هي الإنسان، هي كتاب الحياة الأكثرإضاءة ووضوحا، إنها السراج في الأعماق المظلمة.. إنها تقدم الإنسان إلى نفسه ، تسعى للدفاع عن حريته و عن حقه في حياة لا توصف بأقل مما هيأه الله عز وجل لهذا الكائن !!

" تتشكل خيوط الرواية لتؤرخ إنسانا في موقف ، تؤرخ موقفا في إنسان ، تؤرخ المجد و كذلك تؤرخ الفشل.. كل هذه الصيحات الروائية المدوية في عالم الإبداع الأدبي، هي دموع تنهمر من ضمير الإنسان ، و من روحه ، تحاول أن تلفت النظر إلى رؤية هذا الإنسان ، إلى اللحظات القصيرة التي تحمل أحداثا لا يلتفت إليها أحد. أجل، فإن وظيفة الرواية تكمن في مقدرتها على أن تجعلك تلتفت لوقائع مرت،و فاتك أن تتأملها، وهي بذلك تمنحك هذه الفرصة الذهبية مجددا.. الكلمات الروائية هي القناديل الكبرى، وهي الرشيد إلى نهارات لا تنتهي من الضوء..." (٢)

---

١) حساسية الرواية وذائقة المتلقي ص: ١٠ عبد الباقي يوسف ــ كتاب " المجلة العربية " ــ رقم (١٨٢) صفر ١٤٣٥ هـ / يناير ٢٠١٢ م المملكة العربية السعودية.

٢) السابق – ص ١١: ١٩ مواطن متفرقة.

والرواية بهذه الحيوية و الفاعلية باستطاعتها أن تكتنز بالأفكار و الفلسفات، والقيم الفكرية و الدينية التي تمثل إيديولوجيا لأشخاصها المختلفين أو المتصارعين عبر فضائها الإبداعي، الموار بالحكايات والأفكار والعلائق والتصورات المتواجهة، بوصفها " كتاب حياة،أُترعت صفحاته بالفلسفات و الرؤى التي تكسبها فرادة و تميزا، ربما يستأنس متلقيها أو يتعاطف مع أي منها، أو ينفر و يصطدم ببعضها.

ومن هنا،وجدنا أن البعد المعرفي للمجتمع ؛ أي مجتمع، يحاول مبدعوه أن يعالجوا إشكالاته أو يفكوا الاشتباك الذي ربما أشعلته الخصومات السياسية أو الاجتماعية لا يمكن لفن ما أن يلم بأطراف معالجاته،و نجاعة تدخلاته، إلا بفن الرواية ،لما لها من سطوة جمالية – إن صح التعبير – ربما لم تتوفر لغيرها من الفنون ، و ربما يتوفر على استكناهها، أوالإلمام بقيمها من المجتمع، شرائح متعددة الثقافات والفكر.. و الحياة..

منذ زمن طويل ربما يربو على القرنين،و نحن نعاني من جراء موجات الاستعمار المتتالية لبلادنا و مجتمعاتنا ، ما خلق لدى مجتمعاتنا العربية إشكالية تتبلور في ما يمكن تسميته بـ " العداء أو الصدام الحضاري "، بين حضارتين ؛ عربية وغربية ٤مستعمِر(فاعل) و مستعمَر(مفعول به)، بما يمثله كل من هذين المصطلحين – إن جاز التعبير – من معاناة ترسبت توابعها على امتدادا هذا الزمن في ذاكرة (المفعول) من جراء هذا (الفاعل)، الذي يرمز إلى السطوة و الطغيان و النهب و السلب ، و ربما محاولة تعمد الانسلاخ من الهوية.. و مازالت هذه الإشكالية قائمة حتى يومنا هذا، و ما يزال الحبل طويلا وممتدا على الجرار ــ كما يقولون ــ حتى بعد أن غادرنا أو أرغم على المغادرة، استأنف غطرسته القديمة، ووصمنا نحن العربي و المسلم بالإرهاب، سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر المشئومة ،و انتشار الانفجارات في أماكن مختلفة من خارطة العالم الغربي، الذي ما يزال يرانا " الخطر الأخضر" على تقدمه وحضارته !!.. و للأسف كثير من أبنائنا سواء من العملاء أو المغرر بهم من المتهمين بحسن النوايا،أو الطامعين في الحصول على فتات سلطة جرباء لم تثمر سوى الحنظل المر !!.

الرواية هي أكثر الفنون قدرة على " تجسيد إشكالية الأنا و الآخر ، إذ تتيح الفرصة لصوت " الأنا " للتعبير عما يضطرم في الأعماق من مخاوف و آلام و أفكار ، فتنطلق في نقد الذات و الآخر معا ، و إن كنا نلاحظ أن هذا النوع من النقد ، يمارسه

عادة المثقف الغربي أكثر من العربي ، لهذا يشكل أحد أعمدة النهضة الغربية ، حتى إن تطور الفكر الغربي مدين للنقد الذاتي ، الذي لا يتوقف المثقف (المفكر ، الأديب...) عن ممارسته.

و كي لا يبدو هذا القول نوعا من جلد الذات ، يحسن أن نشير إلى أن النظرة الضيقة ، يعانيها كل إنسان جاهل في أي زمان و مكان ، فمن يفتقد الثقافة يفتقد سعة الصدر ، أي روح التسامح ، و احترام الرأي المختلف.

و بما أن الرواية تعد من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها و أوهامها ، مما يتيح لنا دراسة إشكالية العلاقة بين " الأنا " و "الآخر" فيها ، إذ تستطيع أن تفتح أمام المتلقي طريق فهم الذات و الآخر معا ، فهي قادرة على نبش أعماقنا و تجسيد أفكارنا و مشاعرنا و أحلامنا ، و طرح ما يعترضنا من إشكالات تعانيها " الأنا " في مواجهة الآخر ، كل ذلك يفسح المجال لتقديم اضطراب رؤيتنا و قلقنا و إحباطنا ، فيعكس تطور نظرتنا إلى ذواتنا و إلى الآخر ، مثلما يعكس أوهامنا و أفكارنا المسبقة، التي كثيرا ما نجد أنفسنا أسرى لها. إذ تشكل أسس تصرفاتنا و علاقتنا مع الآخر.

إذن يفسح اتساع الفضاء الروائي المجال أمامنا ، كي نتأمل هواجسنا و وجهات النظر المتعددة ، التي نواجهها في الحياة ، و تثير أسئلة حول " الأنا " و أزمات تعترض تشكيل الهوية ، التي من بينها إشكالية العلاقة مع الآخر ، فتبرز التشوه الذي يحاصرنا ، مثلما يحاصر الآخر ، و بذلك تتغلغل الرواية في الأعماق ، لتناقش الإكراهات التي تعشش في اللاوعي ، فتقتحم المخبوء في تصور الذات و الآخر ، و بذلك نتعرف على تلك القيود و الأوهام ، التي قد تحاصر إنسانية الإنسان ، و تسقطها في ظلمتها ([1])".

بعض روائيينا العرب يحاولون أن يصنعوا المعادلة الصعبة لهذه الإشكالية (الأنا والآخر)، سيما و نحن تجمعنا المصالح، و تواشجنا الحاجات و لو بالرغم منا !!..

من هنا كان لابد من معالجة هذه الإشكالية بطريقة ما ، وعبر تقنية إبداعية معينة نابعة من فكر المبدع و ثقافته و قيمه و إيديولوجيته.. فكانت كثير من الروايات التي

---

١) إشكالية الأنا والآخر ص: ١٤، ١٥ د. ماجدة حمودة ــ عالم المعرفة ــ عدد (٣٩٨) مارس ٢٠١٣ م ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت.

جسدت هذه المشكلة، وعالجت هذه الجدلية التي عشنا معاناتها طويلا ، وها هم كثيرون من يقدمون أيديهم لهذا الطرف أو ذاك، حتى نتجاوز هذه العقبة و ننطلق في أفق يجمعنا على الاحترام لقيمنا و ديننا وأوطاننا و ثقافتنا.. حاولت بعض الروايات العربية (١) أن تجسد الرغبة في فهم الآخر، الذي بدأ في صورة معادية (فرنسي / انجليزي / صهيوني، أو غيرهم، ممن ارتكبوا حماقات الاستعمار لأوطاننا، من أصحاب الإيديولوجيات أو المذهبيات الفكرية، التي تتصادم مع قيم مجتمعنا، و إسلامنا، بوصفه الدين ؛ منتج الحضارة الربانية ؛ ساطعة النور و بانية المجتمع الحر، الذي يحرص (الآخر) على إخماد جذوته، في أفق المجتمع الإسلامي، أو التصور الحضاري لرؤيته للحياة ، و تفكيك بنيته الحضارية، و لعل أبرزها الإنسان، و مشروعه الحضاري الإنساني،المنطلق في الأفق الإسلامي البديع..

واكبت هذه الطفرة الإبداعية كثير من الدراسات النقدية (٢)، التي تنطلق في معالجاتها تصورات و رؤى أو إيديولوجيات، كذلك ربما لا تلتقي كثيرا مع الرؤية الإسلامية لهذه المواجهة الحضارية، و لكنها اهتمت بالآخر الغربي من جهة الصراع الحضاري، و مواجهة المستعمر ، و عدم رصد العلاقة الإيجابية (٣)" أو جعلت من " الأنا " نمطا متخلفا، و تابعا و منبهرا بالآخر!! ، فضلا عن إحساسه بالعجز ، و ربما بالدونية، ما جعلنا نبحث عن نوعية أخرى من الإبداعات الروائية تعني بالتوهج الحضاري و الإنساني للإنسان العربي و المسلم، و تحاول أن تشكل هوية حضارية لشخوصها الممثلين للـ" أنا "،التي تمتلك كل هذا الثراء الحضاري و القيمي، و لا يعني أن الجوهر النفيس إذا ران عليه التراب أنه فسد و فقد قيمته !!، و لكن المعدن النفيس دائما ما يكون مطمورا في باطن الأرض وهيل عليه التراب لكنه إذا ما استخرج ، و نفضنا عنه كل هذا الركام صار مشعا و استعاد لمعانه و قيمته كأفضل ما يكون !!

---

١) منها روايات: تخليص الإبريز – عصفور من الشرق – الحي اللاتيني – أصوات و غيرها.

٢) من الدراسات ، غرب و شرق لجورج طرابيشي – صورة الغرب في الرواية لسالم المعوش – الذات و المهماز لمحمد نجيب التلاوي – ووجهة النظر في رواية الأصوات العربية لمحمد نجيب التلاوي.

٣) إشكالية الأنا و الآخر ص ٩.

دراستنا تعني بتتبع النماذج المتقابلة فكريا و إيديولوجيا، و التي تتخفى خلف عقيدتها الإسلامية (الآخر: المختلف في الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي)، وفي الوقت نفسه تدعي أنها تحمل الإسلام بكل إشعاعاته الحضارية ، و تعبد الله ، و تؤمن به سبحانه ، و تتزيا أزياء غربية ، و معجونة بأفكار و قيم و مبادئ متصادمة مع الفكرة الإسلامية ، أو التصور الإسلامي لهذا الدين الحنيف !!سيما في اللحظة التي تواجه أو تصطدم بـ "الأنا " التي تحمل تلك القناعات الإيمانية والحضارية، وتؤمن بها ؛ يقينا وإدراكا ومنهجا وسلوكا. و هنا وجه الاختلاف أو الجدة – إن صحت العبارة – بعيدا عن الانبهار أو حتى الإحساس بالدونية لدى المسلم أو الغربي، وكما فهمه الروائي " نجيب الكيلاني "، الذي يحاول أن يضعنا على الطريق الصحيح في علاج مشكلة العلاقة بين الأنا والآخر من منطلق هذه الرؤية الخاصة ، و يعيد إلينا ثقتنا في أنفسنا ، فلولم يكن بإمكاننا هزيمة الآخر عسكريا ، فلا أقل من أن نهزمه حضاريا و قيميا و إنسانيا و عقديا ! إذا كان هذا ممكنا !!.

هذا ما وجدته مشعا في روايات " نجيب الكيلاني " الذي عنيت إبداعاته بهذه المواجهة الحضارية ، و كانت روايته " عذراء جاكرتا " مثالا على تلك الرؤية الحضارية للإسلام و لمُنتَجِه الحضاري ؛ الإنسان المسلم ، الصالح المصلح في هذا الكون..

من هنا، اكتسب الدراسة أهميتها ، و فاعلية النقاش الذي دار على صفحاتها ، لكي نصنع هذه المعادلة الحضارية في العلاقة بين "الأنا و الآخر" بعيدا عن الأحكام المسبقة ، أو الأفكار المعلبة،أو الأكلاشيهات المصكوكة مقدما..

فالهوية الإسلامية هي التي صنعت هذا المجد العظيم الذي أنتج هذه الحضارية الباهرة،والتي علمت العالم كله معنى الإنسانية و الرحمة و العدالة، وآثرت قيم الخير والحب و الجمال في الكون، منطلقة من القيم الربانية البانية..

حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن السؤال الملح الذي طرحته هذه الإشكالية ، لِمَ هذه المواجهة ؟.. و ما طبيعتها ؟ ووجهة نظر الرؤية الإسلامية في طرح هذه الصراعات عبر الأعمال الأدبية ؛ لتقدم لنا حلولا و لو مبدئية للتعامل مع هذه القضية برؤية كانت تحكمها أيديولوجيات ربما لم تعرف طبيعتها طريقا إلى البنية المعرفية ، و الرؤية الفكرية

المنبثقة عن الإسلام بوصفه العقيدة البانية ، و المُشَكلة للقيم الحضارية، التي تسعى إلى استكناه كل مفردات هذه الكون،في المنظومة التي خُلِقَ من أجلها..

البنية الثقافية المعالجة لقيم الخير والحب والجمال، التي تسعى لإشاعة الرضا العام و التآلف و الإخوة الإنسانية في هذا الكون ، و بهذا تتحقق الوظيفة الربانية التي خلق الإنسان من أجلها و هي خلافته في الأرض، وعمارتها بقيم و أخلاق تضمن السعادة لكل سكان الكرة الأرضية.

من هنا ، حاولت الدراسة رصد هذه اللقطات ــ إذا صح التعبير – التي حملها لنا الصراع عبر خارطة الرواية الإبداعية، و التي تلمع عبرها لحظة المواجهة الحضارية. و سنرى كيف تنتصر الإيديولوجية المنبثقة عن قيم و أخلاق و رؤى الإسلام ، هذا الدين العظيم، الذي يحاول أن يتسع أفقه الإنساني لاحتواء كل هذه الرؤى، و كل هذه التشكلات الفكرية والمذهبية، داخل منظومته القيمية الرفيعة، التي وشى بها قرآننا العظيم في قول الله تعالى:"ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ "(١)، وفيما يقدمه منهج رسولنا الكريم " صلى الله عليه وسلم في دعوته حين قال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ "رضي الله عنه "عَنْ النَّبِيِّ "صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " قَالَ: إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ(٢) ".

فكل هذه الأنماط أوالنماذج الإنسانية، و تلك المساحات و الآفاق الفكرية المتعددة و المختلفة، باستطاعة ديننا الإسلامي الحنيف أن يحتويها ويستوعبها عبر منظوماته الفكرية والإنسانية والحضارية، و يحاول أن يصنع منها بنية معرفية وحضارية متفردة و متميزة، لمن ينضوون تحت لواء حضارته و قيمه و متطلباته الفكرية، التي لا تتصادم مع الواقع الذي نعيشه في عالمنا الذي يموج بالاختلافات والتيارات عبر هذا الأفق الفسيح...

---

١) سورة فاطر الآية: ٣٢.

٢) صحيح البخاري باب: الدين يسر

مدخل الدراسة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الصراع أو المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب، الشرق بوصفه صاحب حضارة تختلف في توصيفها وقيمها عن الحضارة المادية التي شكلت الهوية الغربية، والغرب بوصفه أيضا ممثلا لحضارة تختلف في منظومتها الثقافية وتوجهاتها الفكرية عن روح الحضارة العربية الإسلامية وتكويناتها للمشروع الحضاري في بنيته المعرفية والثقافية الناهضة على قيم الدين، مما أترعت به بعض الإبداعات الروائية في شرقنا العربي عبر نقاط الخارطة الإبداعية العربية، في أقطارها المختلفة، والمختلجة بمثل هذه التجارب. فمنذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ومع التغلغل الاستعماري في العالم العربي والإسلامي، وذلك " بقصد التحكم فيه سياسيًا واستغلاله اقتصاديًا، وتهديمه اجتماعيًا وثقافيًا، وإضعافه عسكريًا وإعلاميًا وتغريبه دينيًا وحضاريًا، وتشكيكه عقديًا وفكريًا... " (١).

ومن هنا، برزت ــ عبر دراسات مختلفة وبناءً على النتاج الإبداعي الراهن ــ إشكالية المواجهة الحضارية ولا نقول: الصراع بين الشرق والغرب ؛" الأنا والآخر "، فكرًا، وإبداعًا، وتخييلاً، يكشف ويمزق سدفًا كثيرة رانت على جوهر." الأنا " هذه، فكرة الشرق عبر ثنائية العُقَد المتمثلة في التقدم والتخلف، وكل ما يمكن أن ينضوي تحتهما من قيم متشاكلة أو متناقضة، متصادمة أو متلائمة، يبرز عبرهما منظومة من الدلالات التي يمكن أن تطرحها عملية الإبداع التي نؤمن بإمكاناتها الحضارية، في بناء المجتمع الذي نعيش فيه.. تنتظم عبر هذه النتاجات الممتدة عبر الخارطة الإبداعية عدة رؤى. أو ما يمكن تسميته بـ" أنماط رؤى "، تبرز هذه الصورة المتواجهة في روايات " الأنا والآخر " كما تطرحها الدراسات النقدية عبر نتاجاتها الإبداعية، التي رصدت هذه

---

(١) صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي د / جميل حمداوي بحث منشور في موقع " دروب، الإليكتروني".

المواجهة في أعمال روائية مختلفة، حاولت أن تصنع ما يمكن تسميته " ناجزا للسرد "(١)، يتوزع عبر عدة أنساق معرفية وثقافية، تتعدد أشكالها وتتباين طرائقها ــ كما يقول علاء إبراهيم ــ وتتجلى عبر نصوص إبداعية روائية تجسد وتبرز إلى حد ما، طبيعة هذه المواجهة وتطرحها عبر أطر جمالية، تبلور إيديولوجية أو رؤيوية، أو التصور الفلسفي العقدي الذي ينتج " الأنا أو الآخر "، ويضعهما في إطار المواجهة الحضارية التي تسعى إلى إيجاد نقطة التقاء، وتبحث عن نقطة ضوء كاشفة حتى يمكن عبر (الحضارية المرومة) التعايش والتواصل، ويتجاوز الصدام الذي يرتهن له تصورنا الأيديولوجي في العلاقة بين الشرق والغرب.. ونتحرر من عقدة التفوق والاستعلاء في مواجهة التخلف والضعف التي تترسب في ذهنية العربي الإسلامي الشرقي، تجاه السكسوني الكافر في كثير من الأحايين.

من أبرز الأعمال الروائية التي تجلت فيها وعبرها، هذه العلاقة الملتبسة بين الشرق والغرب، كانت رواية الطيب صالح " موسم الهجرة إلى الشمال " التي حاولت أن ترصد حالة الصدام، أو التصادم الحضاري عبر مظاهر متعددة، تتصاعد خلال رمز الحضارتين؛ الشرقية " مصطفى سعيد " الشاب السوداني الذي يذهب إلى انجلترا، ويتعرف هناك على عدد كبير من النساء الإنجليزيات "رمز الغرب "، تنتهي علاقتهن به نهاية مأساوية، جعلت تهمة قتل إحداهن (زوجته الخائنة المتمنعة عليه) توجه إليه؛ ليقضي في السجن عدة سنوات قبل أن يعود إلى قريته، ويموت فيها ميتة غامضة !!

وهذا ما يكشف عن العلاقة التصادمية التي تبلورت عبر هذا الفضاء الإبداعي، تشكلت خلاله درجة من المواجهة، انبعثت عن عدة تراكمات قيمية لم تستطع الشخصية العربية الانفلات منها. ومن ثم، وقفت مانعا قويا تجاه عملية التفاعل أو التواصل الحضاري، وإن تجلت في أسمى وأرهف صورها (علاقة الحب والزواج) !، إلا أن عملية النفور المكتنزة في ذات كل من الطرفين حالت دون ذلك. ولعل هذا ما جعل ناقدا كـ"علاء إبراهيم " يحمل على البطل الشرقي ويكيل إليه الاتهامات متناغما مع الرؤية "الانبهارية "

---

١) المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب: علاء عبد المنعم إبراهيم مقال في "المجلة العربية " عدد (٤٢٧) السنة (٣٧) شعبان ١٤٣٣ هـ / يوليو ٢٠١٢ م.

بالحضارية الغربية، وهائلا كل غبار التخلف على البطل الذي جاء محملا بجملة قيم ومعايير تتباين مع نظيرتها التي يفيض بها الفضاء الحكائي (انجلترا). ومن ثم، " يبذل البطل قصارى جهده للاندماج في السياق الجديد متدرعا بمنظومة قيمية لا يقتنع بها، وبممارسات سلوكية لا تتناغم مع مفرداته العقدية، كل هذا بغية تحقيق التواصل المتغيا، وتتفعل المفارقة الدرامية عندما تتحول لحظات التواصل في أعذب مظاهرها إلى لحظات مؤلمة تكشف عن رمزية هذا التواصل المنطوي على رغبة دفينة للذات الشرقية في الانتقام من المرأة نموذج الغرب المستعمر، عبر ممارسات فحولية تنزع إلى تحقيق التكافؤ بين الماضي والآني، بين الفردي والجمعي غير أن اتساع الهوة بين الطرفين ـــ على الرغم من تعدد النماذج التشخيصية للأخرى الإنجليزية ـ يعجل بالمفارقة الحتمية بين الطرفين، فالركامات المعرفية والعقدية والأخلاقية فضلا عن النماذج الإنسانية المستحضرة عبر الذاكرة، تعمل ـ في هذه الرواية ـ بوصفها آليات تعوق هذا التواصل وتطبعه بالسمة المستحيلة ؛ ليصير (الصدام الحضاري) هو البؤرة المركزية التي يغزل عبرها النص شعريته، هذا الصدام الذي يكتسب منطقيته بمحاولات النص الدائمة إظهار عدم التكافؤ بين الحضارتين الشرقية والغربية، مما ينتج صداما حادا بين الأنساق المعرفية لكل منهما، والصدام لا يتم بسبب الفروقات الجوهرية بين السياقين [فحسب]، وإنما نتيجة للازدواجية الخطيرة للشخصية الشرقية، هذه الازدواجية الناتجة عن اختلاط القيم الروحية الرفيعة بنظيراتها المادية بروافدها الغربية، وعدم القدرة على فك الاشتباك بينهما مما حول القيم الأولى إلى نموذج أخلاقي متعالٍ، يوجه الحاضر انطلاقا من الماضي، وأحال القيم الثانية إلى قيم مفرغة من شروطها التاريخية؛ لتغدو هذه القيم مجرد منشطات عندما يؤخذ بها فهذا يعني إقحاما لأنساق حضارية في شبكة من الأنساق المختلفة، وهنا لا تقصى الشروط التي تمنح هذه الأنساق فاعليتها بقدرما يؤدي ذلك إلى تدمير الأنساق الثقافية الأصلية ؛ فالأولى تجرد من محاضنها والثانية تنهار لأنها تستبعد وتحل محلها أنساق أخرى(١)"

---

١) الشرق والغرب: المواجهة الحضارية (مقال) سابق.

هذه الأطر أو الأنماط أو الرؤى الإبداعية حاول الناقد الدكتور " جميل حمداوي " أن يبلورها في التصور التالي ([1]):

١. الرؤية الانبهارية:

نعني بالرؤية الانبهارية تلك النظرة الأولى للـ " أنا "، وهي تتأمل منجزات" الآخر " المماثل أو المخالف، تلك النظرة الحائرة القائمة على الاندهاش والتعجب والاستغراب والانبهار بحضارة الغرب، والافتتان بتقدمه وازدهاره في شتى العلوم والفنون والتقنيات والمعارف والآداب. وغالبا ما تكون تلك النظرة في البداية فطرية ساذجة أو نظرة واعية ــ نسبيا ــ بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب أو بين المكان الأصل ومكان الغواية والجذب والافتتان، وذلك بسبب صدمة الحداثة أو صدمة الاستعمار، والتي تفرز بشكل جلي التناقضات الهائلة والتباين الشاسع والهوة الفاصلة بين عقلية متخلفة وعقلية متقدمة.

ومن النصوص الروائية العربية الأولى التي صورت جدلية "الأنا والآخر" من خلال رؤية انبهارية معجبة ومدهشة في الآن، نستحضر رواية رفاعة الطهطاوي: " تخليص الإبريز في تلخيص باريز ([2])"، والتي هي بمثابة رحلة يقوم بها طالب مصري أزهري إلى باريس في أواخر القرن التاسع عشر، فيصف جغرافيتها، منبهرا بحضارتها وعلومها وفنونها وأنظمتها السياسية والدستورية والإدارية، ثم يسجل إعجابه بسكانها وأخلاقهم ومنازلهم وصحتهم وتأنقهم وعاداتهم.

ويعني هذا أن العمل الأدبي والإبداعي الذي كتبه " رفاعة الطهطاوي " عبارة عن رحلة روائية تعليمية وتثقيفية، تطرح رؤية انبهارية قائمة على تمجيد العقلية الفرنسية، مع الإشارة في الوقت نفسه بالإحالة والتعريض، والتلويح إلى تخلف العقلية الشرقية، وانحطاط الواقع العربي الإسلامي على جميع الأصعدة والمستويات.

وعلى الرغم من هذا، " فمن التجني على كتاب " رفاعة الطهطاوي " أن نقيسه بالرواية الفنية، لكن قيمة الكتاب من الناحية الفكرية ربما لا تكمن في الناحية الأدبية، بقدر ما تكمن في قيمته الفكرية؛ لأنه يكشف لنا ولأول مرة عن احتكاك عقلية أزهرية

---

١ صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي موقع " دروب "الإليكتروني.

٢ صدرت منها عدة طبعات في أماكن مختلفة.

متفتحة بعلوم الأوربيين، وبعض مظاهر حياتهم الاجتماعية، لمؤلف وجد في نفسه الجرأة على الاعتراف بتقدم الغربيين في العلوم برغم كونهم لا ينتمون إلى الإسلام، على الرغم من النبرة السائدة التي لا تجد فضيلة في الحياة إلا وتنسبها للمسلمين !!.

وإذا كان هذا الروائي وأمثاله من الرحالة الأوائل المنبهرين كثيرا بحضارة الغرب عشقا وفتنة ودهشة، يوفقون غالبا في نصوصهم السردية بين الحضارة الغربية والتراث العربي المشرقي، فيدافعون إلى حد ما عن القيم الروحية الإسلامية، فإن الكاتب فرح أنطون في روايته" الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث" سلك طريقا أخر، فقد انبهر بالحضارة الغربية أيما انبهار، مرجحا كفتها على كل ما لدى العرب من إرث ثقافي وحضاري وقيمي.

٢.الرؤية الحضارية:

ولعل هذا ينبئ عن أن كثيرا من المثقفين العرب في بداية القرن العشرين قد انبهروا بحضارة الغرب انبهارا فاق حد الإعجاب والافتتان إلى حد الغواية ! فانساقوا وراء نزواتهم الشعورية وغيرالشعورية. وبالتالي، كانت رؤيتهم للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع الغريزي لكل المكبوتات الظاهرة والدفينة. ولكنهم سرعان ما استيقظوا من سباتهم، وذلك ليتعرفوا حقيقة الغرب المادي باعتباره فضاءً حضاريا مخالفا عقديًا وقيميًا ودينيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا وثقافيًا عن الفضاء الشرقي الروحاني المتدين. وأن لكل بيئة مقوماتها الخاصة، فالشرق شرق والغرب غرب.

بعد الرؤية الانبهارية بتفوق الغرب، والاعتراف بتقدمه علميا وفنيا وتقنيا في المرحلة الأولى من فترات القرن التاسع عشر الميلادي، نجد رؤية أخرى آخذة في التشكل روائيا وفنيا وإبداعيا في العقود الأولى من القرن العشرين، وذلك مع جيل من الكتاب الذين سافروا إلى الخارج لطلب العلم كطه حسين، وتوفيق الحكيم، ويحيي حقي، ويوسف إدريس، وسهيل إدريس...وآخرين. بيد أنهم لم ينبهروا بالغرب إلى درجة السذاجة السطحية والاستغراب الخارق الفاتن، بل تنبهوا إلى أسباب تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا وفنيا، ولكنهم تنبهوا أيضا إلى قيمة الشرق، وتميزه على مستوى القيم الدينية والروحانية، والدفاع عن أصالته وعاداته وتقاليده وحضارته وشرقيته.

وهذا ما عبرت عنه الكثير من الروايات العربية بشكل واضح وجلي كرواية"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، و"الأيام" لطه حسين، و" قنديل أم هاشم" ليحيى حقي.

تمثل رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم " نسق التوازي المنتج عبر رؤية ذات مثقفة ، تدور أحداث الرواية في مدينة " باريس " قبيل الحرب العالمية الثانية، وتجسد الأحداث انهيار الاقتصاد وانتشار البطالة، وازدياد الفقر ، وفي هذا الجو المشحون يسافر (محسن)الشاب المصري إلى هناك من أجل الدراسة،ويتعرف إلى شاب فرنسي يدعى (أندريه) وتنشأ بينهما صداقة ، ويعجب (محسن) بقناة فرنسية حسناء تدعي، (سوزي)وبعد محاولات يتعرف عليها ويتصادقان،غير أن العلاقة ــ التي جعلته يمارس سلوكيات كان ينتقدها من قبل ــ لا تستمر أكثر من أسبوعين، ليتعرف (محسن) بعد ذلك علي عامل روسي يدعي (مسيوايفانوفيتش) يري أن أوروبا فتاة شقراء لعوب لاتهتم إلا بمصلحتها حتى ولو كانت علي حساب شقاء الآخرين ، ويكشف (مسيوايفانوفيتش) لـ " محسن " رغبته في الذهاب إلى الشرق بعدما أدرك أن الحضارة الغربية حضارة ناقصة شوهت الدين لصالح المادة، في مقابل حضارة الشرق التي تمسكت بالقيم الدينية، وحفزت أبناءها للتسلح بالصبر أملا في نعيم الآخرة ، وتختم الرواية بوفاة (مسيو ايفانوفيتش) وهو ينعى حظه ؛ لأنه لن يستطيع الذهاب لمنبع الشرق.

فمحسن ــ المعادل النصي لشخصية الحكيم ــ يتمتع برحابه إنسانية، ساعدته علي انفتاح منظور رؤيته المؤمنة بحضارة عالمية، تأخذ أفضل ما في الحضارتين من كل جميل ونافع وعملي ؛ لتقدم للبشرية نور السلام الدائم ، وتحتضن كل شيء ، مما أنتج نصا ينزع إلى تحقيق التوازي بين السياقين الشرقي والغربي، عبر استحضار مجموعة من النماذج الإنسانية التي تكشف عن وطأة الأزمة الإنسانية التي تعيشها الذات البشرية بغض النظر عن المساحة المكانية التي تحضر فيها، فالمثقف الساعي إلى المعرفة والمتمتع بشغف السؤال وفتنته، يواجه واقعا مأزوما هنا وهناك، كما أن أزمة البطالة واحدة،وحرمان العمال حقوقهم متوافر في السياقين ، ورغبة الغربي في التمرد علي منظومته بمحاولة الانتماء للمنظومة الشرقية، تتوازى مع رغبة الشرقي في الارتماء في

أحضان الغرب ! وانتقاد الروسي (مسيوايفانوفيتش) لسياقه المادي يتوازي مع انتقاد الشرقي (محسن) لسياقه الذي غدا مشوها علي حد تعبيره، وروحانية (السيدة زينب)التي نشأ فيها (محسن) تعارض بالتوازي مادية (باريس)التي عاش فيها، إنها الرؤية المتوازية التي حولتها قدرة " الحكيم " علي مجاوزة حمى الانبهار بالحضارة الغربية، التي تلمح بعضا منها في جولات (محسن)في شوارع باريس وتأملاته الفنية والموسيقية ، ينعتق " محسن /الحكيم " من غواية الجديد المفارق ؛ ليستعيد شرقه من منظور محايد، يحترم تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا وفنيا، ويدرك في الوقت نفسه تميز الشرق علي مستوي القيم الدينية والروحانية (١)".

إذًا، هناك جدلية وتفاوت في هذه السيرة الروائية بين هذين الفضاء ين المتقابلين، حتى إن الأديب لم يرتض العودة إلى بلده لما قامت الحرب على فرنسا، وكان يتمنى الدفاع عن هذا البلد في وجه النازية ؛ لأن هذا البلد يقترن في ذاكرته بالحب والحرية والإشباع الشبقي، في حين يقترن بلده بالكبت والحرمان وصعوبة المسؤولية. !!

" توفيق الحكيم " إذا في روايته الرومانسية العاطفية العذرية" عصفور من الشرق"، يصور الرؤية الحضارية المتفاوتة بين شرق متخلف وغرب متقدم، يعتبر الغرب فضاءً للماديات والتفسخ الأخلاقي والانحطاط القيمي. بينما الشرق على العكس من ذلك، فهو رمز للروحانيات الطاهرة والقيم الدينية الفضلى والمثل العليا الأصيلة، والتي يصعب جدا تغييرها بالمعايير الكمية والمبادئ المادية الاستهلاكية.

وهكذا، تعرض رواية " عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم:" مفارقات تقوم على تقابل الشرق بمقوماته مع الغرب بمقوماته، في قصة تتصل بحياة الكاتب في فرنسا عبر ما يمكن تسميته بـ " المواجهة الحضارية ".

فـ "محسن " الشرق يستغرق في التأمل، وتستهويه التماثيل والموسيقى، ويحب حبا مثاليا. ولكنه يصطدم بألوان الحياة الغربية الواقعية حين يتصل بأندريه، فيتجه إلى الواقع وإلى مشاكل العمال، ثم بـ "إيفان " الروسي، فيبسط صور الشرق والغرب، ومزايا كل منهما وعيوبه، ويرسم لكل منهما مثلا أعلى، ثم يرى ما في الحب من مادية حين

---

١) الشرق والغرب: المواجهة الحضارية (مقال) سابق.

يتعرف بصاحبته بعد تقديم هداياها، ويختلط بالفنانين فتتحول نفسه الشرقية بالتدريج، إذ يحبو نحو المثل العليا في الفن وفي الدين وفي الموسيقى من ناحية، ويتصل بالمشاكل العملية من ناحية أخرى، فيناقش مسائل الفراغ والمطالعة، وبعد الأزمة النفسية الأولى يخلق خلقا جديدا، ويستمد قوته من مواطن القوة في رسالة الشرق، ويبتعد عن مواطن الزلل في كيان الغرب..."

كما نجد رواية " قنديل أم هاشم " ليحي حقي " تغوي بالتعامل معها بوصفها عملا يتأطر بحدود ممارسة نسقية مختلفة ، هي (نسق التوفيق) أو بصيغة أخرى (نسق التواطؤ) ، حيث البطل (إسماعيل) ابن حي " السيدة زينب " الذي يسافر إلى " إنجلتر " لدراسة الطب ، و عندما يعود يثور على جهل أهل منطقته الذين كانوا يعالجون عين خطيبته (فاطمة) باستحدام زيت القنديل الموجود في ضريح مسجد " السيدة زينب ".

يقرر (إسماعيل) بعد ذلك علاج (فاطمة) بنفسه، فيحضر الدواء بنفسه غير أن حالتها تسوء حتى تصاب بالعمى، و من ثم يشعر (إسماعيل) بالإحباط و يترك البيت ، و في ليلة القدر يأخذ زجاجة من زيت "قنديل أم هاشم " فيملؤها بالدواء و يذهب بها إلى" فاطمة " و يبدأ في علاجها بالعلاج نفسه بعد أن وضعه في زجاجة الزيت ، و بالفعل تشفى (فاطمة).

إن رحيل (إسماعيل) إلى الغرب يحدث له ما يشبه الانفتاح المعرفي المولد لحالة من حالات التبدل في وعي الذات ، هذا التبدل الذي يتبدى عنفوانه عندما يعود لفضائه القديم فيخضعه للمرشح الآني المتطور ، و يتفعَّل الصدام بينه و واقعه (القديم تاريخيا ، الجديد استقباليا) عندما يعلن تحديه السافر للمنظومة الذهنية الراسخة ؛ لتدفع الذات ثمنا باهظا للاجتراء على الثوابت، مما يصيب البطل بحالة اضطراب ، و هي حالة ضرورية ليعود إلى توازنه ، فكما كانت الرحلة إلى الغرب سببا في زعزعة مفردات المرجعية الشرقية للذات ، فقد حان دور السياق الشرقي لزعزعة اليقين الكامل في العلم، و استبدل به يقينا روحيا يعيد إلى الذات توازنها ، دون أن يخفى علينا نقد السارد لواقع مجتمعه و ممارسات ذويه عبر هذه اللهجة الحادة لبطله ، إنه النقد للمنظومة الثقافية.

إسماعيل ، هنا نموذج للذات المؤمنة بإمكانية التلاقي الحضاري عبر خطوات مرحلية تدريجية ، لوعيها بخطورة الإحلال و الاستبدال على مستوى القيم و المعتقدات، و بخاصة الشعبي منها ، إن الموقف الأخلاقي للبطل لا يمكن فهمه في إطار ثنائية الخادع و المخدوع، وإنما في إطار نزعته التوفيقية الساعية إلى التوفيق بين حضارتين مختلفتين ، في التاريخ والرؤى ، ليستبدل بالصراع التوافق)[١].

ومن جهة أخرى، تصور رواية" الحي اللاتيني"[٢] لسهيل إدريس العلاقة بين الشرق والغرب عبر تشغيل جدلية الذكورة (الشرق) والأنوثة(الغرب)، حيث تصبح المرأة هنا المحك الأساسي لهذه العلاقة الثنائية، وتتحول إلى رمز إنساني دال.

فبطل الحي اللاتيني هو الأنا أو الشرق، بينما عشيقته جانين مونتيرو هي بمثابة رمز للآخر أو الغرب. لكن العلاقة بينهما تنتهي بالفراق والانفصال على الرغم من رباط الحب الصادق الذي كان يجمع بينهما ؛ والسبب في ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب.

ويعني هذا أن بطل الحي اللاتيني لم يستطع الانسلاخ عن شرقه وجذوره وما نشأ عليه من أعراف وتقاليد. فقد استوعبت جانين جيدا هذا الاختلاف الحضاري على الرغم من أن عشيقها قرر الزواج بها، وذلك بعد أن عاتبه ضميره الحي حينما أنكر نسبة الجنين إليه، وأراد أن يقتاد بصديقه المناضل فؤاد، و يكون مسؤولا وملتزما بدوره الوجودي.

وهكذا، يبدو هذا الاختلاف بمثابة صراع بين القيم المادية والقيم الروحية، وصراع بين الدين والإلحاد، وصراع بين الأخلاق والإباحية، وصراع بين الرجولة الشرقية والأنوثة الغربية.

وقد يعكس هذا الصراع التفاوت الحضاري بين غرب التقدم والعلم والتكنولوجيا وشرق التخلف والجهل والخرافات والأساطير، كما عكست ذلك بوضوح رواية " قنديل أم هاشم" ليحي حقي ورواية" عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم.

---

١) الشرق والغرب: المواجهة الحضارية (مقال) سابق.

٢) صدرت عن "دار الآداب " اللبنانية في طبعات متعددة.

إذًا، هناك في الرواية صدام اجتماعي وأخلاقي وحضاري، وهذا ما تعبر عنه "جانين مونتيرو" في مذكراتها إلى فتاها وعشيقها الأسمر الشرقي، بعد أن رفضت الزواج منه، وذلك بسبب القيود الاجتماعية والفكرية والعقائدية التي تطرحها ثنائية الشرق والغرب:" أنا الآن على يقين من أن اجتماعنا أمس، في غرفتي المسكينة، فرض علي فرضا أن أرد فكرة الاقتران بك. لقد اجتمعت أمس بإنسان لا أعرفه. بشاب أنكرته، وكأنني ما لقيته من قبل قط. كان شعوري بعد أن تركتني يا حبيبي. لقد استعدت ما حدثتني به عن المستقبل، وعن آمالك، وعن حياة الصراع الذي أنت مدعو إلى أن تعيشها في بلادك، فوجدت أن دنياك التي تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلي. إنك الآن تبدأ النضال، أما أنا فقد فرغت منه، ومات حس النضال في نفسي. لقد عجزت أن أقاوم أطول مما قاومت، فسقطت ضعيفة مهيضة الجناح...أما أنت فقد قرأت أمس في عينيك استعدادا طويلا، طويلا جدا للمقاومة والصراع. وقد كنت قرأت مثل ذلك في عيني صديقك العزيز فؤاد، ولكن يخيل إلي أن الجذوة التي كانت تطل من ناظريك هي أشد التهابا وإشعاعا من جذوة فؤاد، تلك التي حدثتني عنها مرة في معرض الإعجاب.إنك إنسان جديد يعرف الذي يريده، ويسعى إليه بثقة وإيمان لا يا حبيبي، لسنا على صعيد واحد. لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسي. فكيف تريدني أن أستطيع السير على جانبك، قدما واحدة، في الطريق الشاق الذي ستسلك؟ إنني لا أنتمي إلى جيلكم، جيل وجيل فؤاد وربيع وأحمد وصبحي وعدنان.لا، لن أذهب معك. إن بوسعي الآن أن أتمثل نفسي إذا رافقتك.ستجرجرني خلفك. سأعيق طموحك. سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة.فامض قدما يا حبيبي، ولا تلتفت إلى ما وراءك. أما أنا فأستمد دائما من حبي لك، هذا الذي تصهره الآلام، وقودا يشع علي، فينسيني شقاء عيشي، وزادا أتبلغ به حتى أيامي الأخيرة. فدعني هنا أتابع طريقي حتى النهاية، وعد أنت ياحبيبي العربي إلى شرقك البعيد الذي ينتظرك، ويحتاج إلى شبابك ونضالك جانين".

ونصادف أيضا جدلية الذكورة والأنوثة وثنائية الشرق والغرب والجهل والعلم جلية أيما جلاء ووضوح في رواية يحيى حقي " قنديل أم هاشم"، والتي تصور التقابل الحضاري المتفاوت بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية من خلال التقابل بين شخصية إسماعيل الروحانية وشخصية ماري المادية.

ومن الروايات الأخرى التي تحمل في مضامينها رؤية حضارية، وذلك من خلال التقابل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية رواية " أصوات" لسليمان فياض، والتي جسد فيها الكاتب انبهار القرويين المصريين رجالا ونساءً بحضارة الغرب، وذلك في صورة " سيمون" زوجة حامد البحيري، والتي كانت تبدو متفوقة حضاريا ومدنيا.

استجلب الروائي الآخر الغربي " سيمون " إلى الشرق حيث دار الصراع بين قيم المجتمع الغربي والشرق، " تميزت الرواية بعرض خاص غير مسبوق لقضية المواجهة الحضارية، و مصدر التميز أن مواجهة " المهماز(١) الأوروبي " كانت مواجهة جمعية استعرض فيها وجهات نظرطبقات المجتمع المختلفة إزاء قضية المجانسة والمثاقفة، ولما انتقل المهماز الأوروبي النسوي " سيمون " إلى قرية الدراويش كانت ردود الأفعال المتباينة فرصة لاستعراض حقائق المجتمع وسلبياته قبل إيجابياته.

" تكنيك الأصوات فرض على سيمون / المهماز أن تستقر في المنتصف بينما تتحرك ردود الأفعال على محيط الدائرة لأهل القرية وانقسم أهالي القرية إلى قسمين، القسم الأول: المثقفون ويمثلهم فريق ذكوري تنضم فيه السلطة المأمور والعمدة إلى الطبيب وابن المنسي ثم أحمد البحيري وهم يسجلون الإعجاب الشديد بـ " سيمون " وهو إعجاب مفعم برغبة ذكورية مكبوتة، ويرون فيها النموذج الحضاري الذي ينبغي أن يحتذى.... أما القسم الآخر الحاقدات الجاهلات وتمثلهن زوجة أحمد البحيري ونفيسة القابلة وأم أحمد ونساء القرية وتمادي حقدهن على جمالها وحريتها حد التفكير في إقعادها وكانت فكرة الختان ونزفت "سيمون " بسببها حتى ماتت "

"وموت (المهماز / سيمون) يعني أولا: انتصار الجهل، وأن له الكلمة العليا في المجتمع، وإن محاولات المثقفين يمكن أن يفسدها الجهل في لحظات قليلة ، ومن ناحية أخري فالموت هنا يكشف عن رغبة الذات العربية في موت الآخر كشرط للبعث واستعادة الأمجاد ــ كما يري بعض الأصوليين ــ وتكنيك الأصوات مكننا من الغوص في قاع

---

١) المهماز في مفهوم الناقد الدكتور محمد نجيب التلاوي هو: الآخر غير العربي ويعني به الأوروبي خاصة،بوصفه أداة لإثارة الذات العربية.. راجع الذات والمهماز ص٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ٢٠٠٧ ــ مصر.

المجتمع ؛ لنكشف حقيقة الذات بفعل (المهماز /سيمون) وتكنيك الأصوات يمكننا كذلك من رصد بعض الآراء التي تكشف عن توجهات فكرية حقيقية داخل الذات العربية، وهي توجهات متباينة الرؤى.... فهذه الرواية بتكنيك الأصوات هي الوحيدة التي استعرضت وجهات نظر ولم تقتصر علي وجهة نظر واحدة في حالة فردية(البطل) كما رأينا في جميع روايات المواجهة الحضارية الأخرى.

إن استخدام تكنيك الأصوات قد ارتفع ارتفاعا فكريا وفنيا بمستوي عرض القضية وجاء عرضا خاصا غير مسبوق ؛ لأنه استوعب مستجدات الذات كما أنه ارتبط فنيا بشكل حداثي ابن لحظته وأوانه، ومن هنا اكتسبت رواية الأصوات أهمية خاصة لطرح قضية المواجهة الحضارية (١)".

وهنا نسجل جدلية الداخل والخارج، وجدلية الانفتاح والانغلاق، فضلا عن جدلية التغريب والتأصيل. كما يدل الفضاءان على الصراع الحضاري والثقافي والديني. وتتقابل الأمكنة العامة والخاصة للإحالة على مجموعة من القيم والسمات المتقابلة كالتطور والتخلف، والعلم والجهل، والمادة والروح، والبداوة والحضارة...

و "بناء على ما سبق، تندرج هذه النصوص السردية كلها ضمن الرواية الحضارية، والتي تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب.أي إن الرواية الحضارية هي التي تجسد العلاقة بين الأنا والآخر، وترصد اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب تخييلاً وإبداعًا وتشخيصًا، وذلك على مستوى العادات والتقاليد والأعراف والأديان والمعطيات الثقافية والمادية والعلمية والفنية والأدبية والتقنية " (٢).

---

١) الذات والمهماز ص٢٢٠ / ٢٢١ د. محمد نجيب التلاوي ــ مواطن مختلفة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ٢٠٠٧ ــ مصر.

٢) صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي / سابق.. وهناك بعض الرؤى الإبداعية والفكرية لروايات المواجهة الحضارية التي تحاول أن تضع الأنا أمام الآخر وتؤطر للصراع أو أدرمة المواقف عبر العملية الإبداعية الروائية وجدنا أنها لا تقدم تصورا واضحا وموغلا في العملية الإبداعية حاولت دراسة "جميل الحمداوي " أن تطرحها غبر هذه المقاربة إلا أنني وجدت ليس من الضروري الاحتفاء بها لأن دراستي معنية بالمواجهة الحضارية في إطارها القيمي والإنساني أي في إطار الرؤية الإنسانية للأيديولوجية أو الطرح الثقافي الإنساني للأيديولوجية وتأطير الصراع الحضاري في أفق التعايش وليس الصدام الذي يبرز في أفق مختلف أو ربما متصادم إلى حد كبير..

من هذه الرؤى التي طرحتها دراسته:

١ ــ الرؤية السياسية والحقوقية:

نقصد بالرؤية السياسية والحقوقية تلك النظرة المبنية على تشخيص النظام السياسي لدولة ما، وتبيان طبيعة الحكم والدستور، ورصد علاقة الحاكم بالمحكوم سياسيا ومدنيا وعسكريا وحزبيا ونقابيا، وتشخيص الحالة السياسية للدولة، وتبيان وضعية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان.ومن هنا، فثمة مجموعة من الروايات العربية التي نظرت إلى علاقة الأنا بالغرب من زاوية سياسية، فاعتبرت الغرب مكانا للحرية الحقيقية، وفضاء للحرية والديمقراطية، وحضنًا حميميًا لحقوق الإنسان، وملجأ سياسيًا خيرًا للاحتماء من الاستبداد العربي، والوقاية من رعبه وقهره وعنفه وقمعه المتسلط، والهروب قسرًا واضطرارًا من بلدان الطغيان السياسي والجبروت السلطوي نفيا وتحررًا وانعتاقًا واستقرارًا.

ومن الروايات التي تحمل رؤية سياسية انتقادية تجاه هذه العلاقة الشائكة بين الشرق المتخلف سياسيا والغرب المتقدم مدنيا وحضاريا رواية " شرق المتوسط" للكاتب العربي المعروف عبد الرحمن منيف، والتي تصور رجب إسماعيل وهو منبهر بحضارة الغرب أيما انبهار، ومعجب بمدنيته أيما إعجاب، فيفتتن بسياسته العادلة، وتشبثه بالديمقراطية الحقة وحقوق الإنسان. في حين يصف دول شرق المتوسط بالتخلف والاستبداد والبطش والقهر وقمع الذوات الداعية إلى الثورة والتغيير، ولاسيما الذوات العضوية المثقفة الواعية. ويقول السارد متحدثا إلى أهل باريس:" لو جئتم بكتبكم على شاطئ المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون، سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، وتدفعون ثمن الكلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل، والتيفوس وتموتون".

ونجد هذه الرؤية السياسية الانتقادية واضحة أيضا لدى الروائي المصري صنع الله إبراهيم في روايته" نجمة أغسطس"، حيث يرصد جدلية الأنا بالآخر، وذلك عبر المقابلة بين الإنسان المصري والآخر الروسي، فالأول يهدده الفقر والداء والقمع، بينما يعيش الثاني في سعادة وغنى ونعيم. كما يذكر الكاتب العلاقات غير المتكافئة بين مصر وروسيا، وينتقد التصور الإيديولوجي الاشتراكي الزائف عبر نسج حبكة غرامية بين البطل وعشيقته تانيا.

أما الكاتب السوري " حنا مينه " في روايته" رحلة الربيع والخريف"، فينبهر بحضارة المجر، ويشيد بالتجربة الاشتراكية في هنغاريا، و يدين سياسية الاعتقال والقمع والفقر والتجويع في بلدان الشرق والاستبداد والقهر. ويقابل بين الشرق المتخلف الضائع والغرب الاشتراكي المتقدم من خلال تجربة عاطفية رومانسية بين الراوي(الخريف) وبيروسكا(الربيع). ولم تنته هذه العلاقة الرومانسية إلا بعودة كرم إلى بلده بعد الحرب العربية الإسرائيلية. وبعد وصوله إلى دمشق، سيزج به المخبرون في السجن عقابا له على نضاله السياسي اليساري.

٢ــ الرؤية العدوانية:

تستند الرؤية العدوانية إلى اعتبار الغير أو الآخر مخالفا أو مقابلا للأنا أو الذات. وبالتالي، فالغير يحاول تغريب الذات وإقصاءها وتهميشها، مع ممارسة العدوان والنبذ والحقد ضدها.فيصبح الغير هنا جحيما لا يطاق. لذا، تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي. وهذه النظرة العدائية السلبية غالبا ما تفرز حسب هيجل في حالة انتصار أحد منهما إلى ظهور ما يسمى بجدلية السيد والعبد.

وعليه، فالعلاقة بين الأنا والآخر لا تكون دائما علاقة إيجابية قائمة على الأخوة والمحبة والصداقة والتعايش، بل قد تكون علاقة سلبية قائمة على الكراهية والعدوان كما نجد ذلك في رواية فدوى طوقان" الرحلة الأصعب"، والتي تحمل صورة عدائية للآخر مبنية على النبذ والاحتقار والازدراء. ويعني هذا أن شخصية الرواية المحورية شخصية فلسطينية تعرضت كباقي شعبها للتشريد والتعذيب والتغريب والعدوان والطرد من أرضها المحتلة بسب مكائد الغير أو الآخر الصهيوني المستغل.لذلك، تولدت في نفسيتها مشاعر الحقد والكراهية والعدوان تجاه الآخر، ألا وهو الصهيوني المحتل الظالم والغاشم. ومن هنا، " فنص فدوى طوقان " الرحلة الأصعب" هي سيرة ذاتية ذهنية يختلط فيها التاريخ بالأدب، والتوثيق المرجعي بالمعطى الأدبي والنقدي. كما أن هذه السيرة هي سيرة المقاومة والصمود والنضال والتوثيق للكتابة الأدبية بفلسطين المحتلة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م."

ومن ثم، تحمل هذه الرواية الأطوبيوغرافية في طياتها رؤية سلبية قائمة على الصراع الجدلي والعدوان الوجودي والكينوني والحضاري والديني بين الذات الفلسطينية والآخر الصهيوني.

وينطبق هذا الحكم على الكثير من الروايات الفلسطينية، وخاصة روايات غسان كنفاني، ولاسيما روايته *الرائعة: " عائد إلى حيفا" ...

وتتمظهر هذه الرؤية العدائية والصدامية أيضا في رواية" أمواج البحر" للكاتب المغربي مصطفى شعبان، والتي ترصد لنا صورة مغترب كان يحلم منذ صغره في المدرسة أن يكون طبيبا، وقد سعدت الأسرة أيما سعادة بهذا الحلم.

وكافح الفتى وثابر في دراسته حتى حصل على قسط من التعليم؛ ليجد نفسه في بلده بين أنياب البطالة والفقر ينخره الضياع والعبث واليأس واللاجدوى.

ونيس أمامه من حل سوى ركوب الموج وأخطاره للبحث عن لقمة الخبز في باريس العمل والأمل والأحلام. بيد أن "رحال منير" لم يكن إلا هاربا سريا يخالف قوانين الهجرة، ويسبب متاعب كثيرة للبلد المضيف. لذلك، أصبحت حياة رحال جحيما لا يطاق، حتى إن حجرته صارت كسجن "للحراقين" الهاربين، وقفص للمتهمين النازحين من قارة البشر والمديونية والتخلف وانعدام فرص العمل وحقوق الإنسان.

=

ومن ثم، تصبح حياة رحال في باريس محسوبة الخطوات، ومدروسة بدقة، يتراقص أمام عينيه طيف المراقب ولعنة السجن وعاقبة الطرد، وما سيعانيه في بلده من مآس وصدمات عضوية ونفسية واجتماعية وأخلاقية: "داخل هذه المملكة الخيالية تعيش حراقا في باريس، تنصب نفسك مخرجا، ترتب الأدوار التي تسعفك في كل تحرك... تتدبر تنقلاتك اليومية... كيف تمشي ؟ ... الملبس الذي يقتضيه تحركك... كيف تعود ؟... الرزانة المطلوبة في كل خطوة تخطوها حتى تبدو بالمظهر المتزن، وحتى لا تثير الشبهة والأنظار من حولك.

أعيش في باريس كطائر يغدو في الصباح ولا أدري أأعود إلى حجرتي أم لا أعود...؟ ! حجرتي المسكينة لا يحلو لي الاهتمام بها ولا السهر على ما تستحقه من ترتيب"

هذا، ويعيش رحال انفصاما سيكولوجيا وانفصالا مزدوجا على المستوى الذاتي بسبب التمزق النفسي بين البر والبحر، وبين الأنا والغير. وهذا ما يجعل هذه الرواية يغلب عليها المسرود الذاتي والمناجاة والمنولوج. ويمكن إدراجها ضمن الروايات النفسية أو المنولوجية القائمة على الصراع النفسي، والتآكل الذاتي، وتشظي الذاكرة، وتقاطع الذهن والوجدان، وصراع الأنا واللاشعور.

ويتغلغل إيقاع الموج في نسج سيمفونية " رحال " ولا شعوره المنساق مع مدة الخوف وقلق الموت وعبث الحياة ولعنة الطرد، حتى إن روايته وسيرته عبارة عن مد من الأمواج التي تعلن موته وضياعه، وتضع حدا لطموحاته، وتجعل حياته نسقا من الروتين والتكرار الممل والفراغ غير المجدي والتتابع المخيف.

ويلهث " رحال " وراء العمل، والآخر والغير، والأنثى ؛ لتكسير وحدته وغربته، والبحث عن معنى لحياته وكينونته ووجوده في باريس، ولكن بدون جدوى مادام مهاجرا سريا بدون هوية وأوراق تحدد وضعه الوجودي. لذلك، سيبقى " رحال " في ملجئ النسيان والفقدان بدون ذاكرة ولا انتماء، حيث تنشب الغربة في صدره أنيابها الحادة والدامية. وتصبح اللازمة الروائية " طائر أنا أغدو في الصباح ولا أعرف أأعود إلى حجرتي أم لا أعود...؟!" عقدة الحبكة السردية وبؤرتها الحكائية وترتكز هذه الحبكة على ثنائية الارتحال والعودة في علاقتها بالزمان والمكان والإثبات والنفي.

وقد أحس رحال باستغلاله في العمل من قبل المسئولين عن أوراش الحفر، واستلابه وتحويله إلى أداة للحفر والبناء، وذلك دون أن يستفيد مما يستفيد منه عمال الشركات الذين يملكون تراخيص قانونية وعقود العمل المشروعة. وعندما لا يجد رحال العمل في أوراش الحفر يتعرض للخوف والقلق والعزلة وكآبة الوحدة. وتتجمع حوله هموم الذات والمكان.

ولم تنفعه معاشرة خلانه من أصنافه الهاربين بواسطة قوارب الموت، ولا زيارة أهله وأقاربه المنشغلين بعملهم وقوت حياتهم، ولا زكية التي اعتقدها الخلاص وبر الأمان، إذ وجدها في الأخير "حراقة" مثله تبحث عن العمل وزوج سيضفي عليها مشروعية البقاء وكينونة الانتماء والاندماج في باريس الأحلام والسراب.

هذه الأنماط الإبداعية التي امتدت عبر نقاط الاستنارة الإبداعية على خارطة الوطن العربي، سيما التي تماست مع الغرب سواء بالاستعمار أو بالالتحام الحضاري المجتمعي أو المعرفي، سيما الذين انبهروا بالغرب وبالحياة الغربية وأنماطها، ولم يتجاوزا هذه الإشكالية إلى غيرها، مما كان يهدف إليه هذا الغرب المستعمر، والمستقوي على الشرق بكل ما استقطب من خبراته وعقوله العلمية والإبداعية، مما أغرى بعض مبدعينا، أن يعقد ــ عبر أدواته ونتاجه ــ مقارنة ربما لم تكن غير متكافئة بين قيمنا وقيمهم، بين أنماطنا الإنسانية وأنماطهم، بين تقدمهم وتخلفنا، فيما يرى كثيرون سيما من المنبهرين بحضارة الغرب وتقدمه وإشراق حياته، مقابل الغروب الحضاري والحياتي الذي نحياه في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، مما يطرح أنموذجا إبداعيًا لا يكاد يبارح هذا الطرح.

إن الأنساق الحضارية المختلفة والرؤى الإبداعية التي شكلت رؤى المبدعين في أعمالهم المختلفة التي طرحت القضية عينها من " منظورات متعددة وعبر آليات تعبيرية

هذا، وينعدم في هذا النص الروائي مكون الوصف، ويعوض ذلك بمجموعة من الأحداث وتفاصيل يوميات رحال، واستقراء حالاته النفسية عبر إيقاعات متموجة تمد صاحبها بالتوتر والدرامية وشحنة القلق وأزمة الخوف من المستقبل المجهول. لذلك، تتداخل الأزمنة في الرواية لتشكل مفارقات جنائزية وسراديب من السراب والموت البطيء لإنسان دائم في ارتحال واغتراب.

وإذا كان ماضي رحال هو زمن الأحلام والآمال والفتوة، فإن حاضره يتسم بالاغتراب والعذاب والتآكل الذاتي والقلق والخوف من المجهول والمصير الضائع، وكأن مستقبله في استشراف رحيله وطرده وموته باعتباره ذاتا نكرة مجهولة لا قيمة لها في عالم الاغتراب والقيم المادية، مادامت علاقة الأنا والغير قائمة على الصراع وجدلية السيد والعبد.

وإذا كانت باريس طه حسين وتوفيق الحكيم مدينة الجن والملائكة وسحر المعرفة وحضارة العقل والحرية، فإنها بالنسبة لرحال وأمثاله "الحراقين" والمهاجرين السريين ليست سوى جحيم الموت والضياع والاستغلال والاغتراب والقلق والخوف ومصادرة حقوق الذوات المجهولة والكائنات النكرة. ومن ثم، تصبح باريس بشوارعها وحجراتها وفضاءات الميترو ومقاهيها وحاناتها وميادينها فضاءً عدائيا كابوسيا، يشحن رائده بعقدة النقص والخوف والعبث.

ويبدو أن إيقاع الرواية وتركيبها دائري يدل على الاختناق والموت والحياة المملة. ومن ثم، فالرواية تراجيديا الاغتراب والخوف من المجهول. بيد أن حبكتها السردية بسيطة ومهلهلة الأوصال، تفتقد إلى معالجة روائية أكثر درامية وفنية وتشابكا للأحداث، ويطبعها التقرير المباشر حتى إن الرواية تتحول إلى مذكرات ويوميات جافة تستعرض بطريقة سطحية فجة فنية تتشكل عبرها رؤيتنا لهذه الأنماط الإبداعية ".

مختلفة عكست الموقف الأيديولوجي والجمالي للذوات المبدعة المتوازية خلف ساردیها،هذه الذوات التي جمع بين معظمها التعرض لأزمة كبري تتمثل في جمعها بين ذاتين في جسد واحد، حيث إنها عاشت في سياقين حضاريين متباينين، مما أنتج تنازعا داخليا، جعل حضورها مؤطرا بملابسات فعل الاغتراب بمصاحباته الاستتباعية من توتر وقلق وانقسام، وفي بعض الأحيان ضياع، إنها الأزمة الحضارية للذات الشرقية المنفتحة علي الغرب في مرحلة مبكرة، ولأن هذه الذات تملك أدواتها الإبداعية، فقد رشحت هذه الأزمة من شوائبها الفردية ؛ لتجعلها أزمة جمعية، يتم تشفيرها عبر دوال رمزية حاضرة، في صورة نماذج إنسانية، تشتغل علاقاتها المتشبعة مع سياقها الأبوي وسياقها الوافدة إليه بوصفها علاقات ترصد مظاهر المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب وأنماطها، وموقف الأنا الفردية _المحلية إلي أنا جمعية _ من الآخر بنمطيه الفردي والجمعي ، وذلك علي مستوي العادات والتقاليد والأعراف والأديان والمعطيات الثقافية والمادية والعلمية والفنية والأدبية ؛ ليتباين موقفها من نتيجة هذه المواجهة ويتراوح من حتمية الصدام إلي إمكانية التمازج (١)".

ولعل ما تطمح إليه الدراسة يتجاوز كل هذه الأنساق أو المعطيات التي تداولتها الطروحات الإبداعية، ومن ثم النقدية المختلفة؛ لتؤطر لنسق إنساني وحضاري آخر يحاول البناء علي ما تقدم ، ويشرع أبوابا أخري ربما ظلت موصدة أمام المبدعين؛ لظروف أملتها أبعاد حضارية وثقافية وسياسية مختلفة ، تتماس مع أيديولوجيات ربما لم تسمح الظروف القائمة في أن تدنو منها رؤية الناقد، وربما المبدع إلا من كانت لهم رؤي و طروحات مختلفة ولم يخش التصادم كأمثال الأديب الدكتور " نجيب الكيلاني "، والذي كان مصنفا من أدباء الرؤية الإسلامية التي كانت محاصرة في زمن الاقتراب السياسي مع الأيديولوجيات التي يحاول طرحها، والرؤية النقدية والفكرية التي كثيرا ما حاولت نقد التوجيه الرأسمالي أو الشيوعي المتصادم مع التصور الإسلامي.... وتري الدراسة أن من واجبها الفكري والثقافي طرح مقاربة نقدية تحاول الكشف عن هذا الثراء الحضاري

---

١) الأنا والآخر مواجهة حضارية / سابق

الذي ربما يسد ثغرة، أو يضع اللبنة كي يكتمل البناء الفني والثقافي للطرح الفكري للعملية النقدية في أطرها المتعددة...

هذه الخصائص التي تتجاوز ما هو فني إلى ما يمكن تسميته بـ" الإبداعي " الذي يحتوي أو يطمر في مكنونه وتلافيفه قيما فنية وحضارية عديدة، ربما تسوقنا إلى دائرة اهتمام أخرى مهمة وتستقطب اهتمامنا النقدي عبر مدى طويل، ربما تتجاوز هذا الطرح الأيديولوجي إلى طروح أُخَر، حاول الأديب المبدع الروائي "نجيب الكيلاني " يطرحها بل ويوقف نتاج إبداعه الغزير في عالم الإبداع الروائي إزاء هذه المواجهة الحضارية بين (الأنا والآخر) في روايات كثيرة حاول أن يضع "الأنا " أي ذات الأديب أو المفكر أو السياسي ؛ شخصية كانت أو شريحة أو جماعة، في مواجهة من يتضاد معها في بؤر والتماعات كثيرة سواءً أكانت فكرية أو سياسية أو اجتماعية، أو غيرها من القيم التي تصادفت في واقعنا الاجتماعي عبر عقود وأنظمة سياسية وشرائح اجتماعية مختلفة.

فمثلاً في رواية " أرض الأنبياء "، و" عمر يظهر في القدس "، و " دم لفطير صهيون "، يصنع ما يمكن بتسميته مواجهة حضارية / فكرية بين اليهود والصهاينة في فلسطين من جهة، والمقاومين المسلمين والعالم العربي والإسلامي من جهة أخرى.

وكذلك في روايات " رحلة إلى الله "، و " ليل العبيد أو ليل قضبان "، و"حكاية جاد الله "، يصنع ذات المواجهة الفكرية والحضارية بين النظام الدكتاتوري الحاكم في مصر وقتئذ كما يراه الروائي عبر العقود الثلاثة [1] في منتصف القرن العشرين... وبين جماعة الإخوان المسلمين !! وغيرها من الروايات التي أبرزت المواجهة أو الصراع الحضاري بين الأمة المصرية والمستعمرين الغربيين كالفرس والإنجليز كما في " مواكب الأحرار "، و " طلائع الفجر ".

أما الرواية موضوع الدراسة التي نتناولها في دراستنا هذه وهي تعني بالمواجهة الحضارية بين أيديولوجية أو التصور الإسلامي والإيديولوجيات الأخرى، التي حاولت الصدام مع الإسلام بوصفه دينًا حضاريًا تنبثق عن تصوره كل مجريات حياة المسلمين

---

(١) ما بين (١٩٥٢) حتى نهاية نظام جمال عبد الناصر في حرب ١٩٧٠م.

ومحكومة بأفقه الفسيح، فالقصة الإسلامية [١] " هي الأداء الأدبي المحكم المؤثر الذي يركز على العبرة / المنفعة في إطار جمالي محبب لا مثيل له " وهي " تهدف إلى إبراز الشخصية الإسلامية وإلى الوجه الحضاري للإسلام، وتنقية المفاهيم الإسلامية مما شابها من غزو أجنبي، عمل على طمسها، أو تغيير ملامحها وإذابتها في طوفان من التصورات والمشاعر والأفكار التي تتنافى مع قيم العقيدة الصحيحة... إن الأدب الصحيح صاحب رؤية وموقف وفعل..) [٢].

فإذا كان الأمر كذلك، فإن آفاق القصة الإسلامية بهذا الامتلاء والحيوية ــ تصبح رحبة، تستطيع أن تخوض في شتى المجالات وتتناول مختلف الموضوعات دون خوف، في إطار الرؤية الإسلامية، أو قيم الإسلام ومبادئه، فالعبرة بالانطباع الأخير الذي تخلفه القصة، والهزة الروحية التي تبعثها في الإنسان والتغيير الفكري والسلوكي [٣].

هذه الروايات هي: " عذراء جاكرتا "، " ليالي تركستان "، و"عمالقة الشمال " صدرت جميعها ضمن باقة مختارة تسمى " روايات إسلامية معاصرة [٤]" يقول عنها المؤلف نفسه تحت عنوان: " التجربة والنتيجة " [٥]:

" لقد لاحظت أن الأدب القصصي العربي المعاصر لا يحفل بقضايا العالم الإسلامي الذي يتكلم بلغات غير العربية، ولا شك أن هذه الجفوة بين أدبنا ومشاكل الأمة الإسلامية تعكس نقصًا خطيرًا في العلاقات، وفي معرفتنا بما يعانيه إخوة لنا في الإسلام، لم يتخلفوا يومًا عن أداء دورهم في خدمة الدعوة، ولم يتجاهلوا قضايانا، وكانوا معنا في المحافل الدولية، ويعيشون معاركنا في فلسطين والجزائر ومصر وغيرها، ففكرت لماذا لا نشارك إخوتنا في الإسلام همومهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؟؟، لماذا لا نحاول الكشف عن منابع الدس والمؤامرات التي تحاك ضد الإسلام ؟؟ لماذا لا نبرز العامل المشترك

---

(١) حول القصة الإسلامية ص ٢٢ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٩٢ــ بيروت.

(٢) السابق ص ١٨ / ٢٠.

(٣) تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ص ٣٨ ــ نجيب الكيلاني ــ دار ابن حزم ــ أولى ــ ١٩٩١ــ بيروت.

٤) جميعها من إبداع نجيب الكيلاني ــ دار النفائس ــ أولى / ثامنة ــ ١٩٧١/١٩٨٤م ــ بيروت.

(٥) السابق ص ٤٧ وما بعدها.

الأعظم بيننا وبين إخوتنا ؛ وهو العقيدة ؟؟ وكان أمامنا العديد من المشكلات في العالم الإسلامي، فهناك الجمهوريات الإسلامية التي ابتلعها الاتحاد السوفيتي(١) وحاول طمس هويتها ودينها، مثل: تركستان، وهناك أيضًا المعركة الضارية التي احتدمت بين الشيوعيين والإسلاميين في إندونيسيا، وهناك المؤامرة التي دبرت لتمزيق دولة نيجيريا، وما تعرضت له من دسائس صليبية وصهيونية.

و هناك.. وفي كل مكان حرب ضروس ضد الإسلام والمسلمين، إن تناول مثل هذه القضايا في قصص عصري واقعي، يسهم بالدرجة الأولى في نشر الوعي بين شباب العالم الإسلامي، ويوثق الصلة فيما بينهم، ويفتح بابًا للتعارف والتعاون، فضلاً عن أنه يبرز رسوخ الإسلام العتيد في النفوس والعقول، وقدرته المعجزة على إلحاق الهزائم بأعدائه، برغم تسلّحهم بأسلحة شريرة متنوعة ".

" إننا نريد من جموع شعوبنا وخاصة أجيالنا الشابة أن يكونوا على صلة بما يجري في عالمهم الإسلامي، ونريد لهذه الصلة أن تتأكد من خلال الاستمتاع الفني، عبر أجواء وآفاق لا يبدو فيها الافتعال والتصنع، ولن يتم ذلك إلا بالحفاظ على القواعد الفنية المتعارف عليها أو الشائعة، والقادرة على التشويق والتأثير، ومن خلال البيئة الواقعية المقنعة التي يرسمها قلم القاص، إن الشخصيات يجب أن تخضع لنواميس الله في خلقه، فيكون فيها القوة والضعف، والأمانة والخيانة، والصمود والتراجع، كما أن طبيعة الحياة أن تحفل بكل ما يتعلق بالإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار، وليس من الضروري دائمًا أن تكون هذه مثالية محلِّقة، فالإنسان بنص القرآن ضعيف وعجول وجهول، ثم إن هناك المؤمنين الأصفياء، والشجعان الأشداء، وهناك الخائفون والمقدمون، وهناك الحب بشتى ألوانه وبواعثه.

شدتني مأساة " تركستان "، هذا البلد العظيم الذي نبغ فيه عدد كبير من علماء الإسلام وفلاسفته وفقهائه، كابن سينا، والترمذي، والبيروني وغيرهم، وآلمني أن ينقض عليه الشيوعيون فتأخذ روسيا تركستان الغربية بأسرها، وجزءً من تركستان الشرقية، وتأخذ الصين القسم الباقي من تركستان الشرقية (إقليم سينكيانج أو الأرض الجديدة)

---

١) روسيا الاتحادية الآن.

وهو الإقليم الذي يشكل المسلمون غالبيته العظمى الآن في الصين، ويقومون بالمظاهرات الصاخبة، ويطالبون بحقوقهم العريقة، مما اضطر الحكومة الصينية في (تلك) الأيام إلى محاصرتهم، ومنع وكالات الأنباء من الوصول إليهم.

كان لشعب " تركستان " قصة جهاد رائدة وعظيمة، استمرت حتى بداية الخمسينيات من هذا القرن، ولكي أجد الخلفية الصحيحة لأحداث القصة كان عليّ أن أدرس تاريخ تلك المنطقة وجغرافيتها، والمعارك العسكرية التي دارت على أرضها، والمعاناة الصعبة التي تعرّض لها النساء والأطفال والرجال ؛ فكان أن كتبت قصة " ليالي تركستان ".

ثم انتقلت إلى دراسة ذلك " السرطان الشيوعي " الذي تفشى في " إندونيسيا " في الفترة الأخيرة من حكم "سوكارنو " الذي زعم أنه " ماركسي مسلم " !، وكانت معركة مهولة بين الشيوعيين بقيادة " عيديد " (أديت) وبين جيش البلاد بقيادة "سوهارتو" والحارس " ناسيتون "، تلك المعركة التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الضحايا والشهداء، وانتهت بسقوط الشيوعيين (ثالث حزب شيوعي في العالم) وقتل " آديت "، ومن الأمور المهمة في هذه القصة تصوير دقيق للكوادر الشيوعية التي ترسخت قواعدها داخل المجتمع الأندونيسي، وأنشأت لنفسها شبه حكومة لها محاكمها وسجونها ومعتقلاتها وإعلامها، كما أن فيها إلقاء الضوء على ما بذله رجال الدعوة الإسلامية من جهود خارقة للقضاء على الشيوعيين الذين كانوا يريدون ابتلاع أكبر دولة إسلامية في العالم.

وكانت روايتي عن إندونيسيا بعنوان " عذراء جاكرتا".

أما الرواية الثالثة فهي " عمالقة الشمال " فقد تناولت الفتنة الطائفية التي تعرضت لها " نيجيريا "، وقيام جمهورية " بيافزا " الانفصالية التي سقطت فيما بعد، ونظرًا لأن " نيجيريا " تتكون من قبائل وأديان مختلفة ؛ ففيها الوثنيون والمسلمون والمسيحيون، فقد كان الصراع عنيفًا، ثم إن لنيجيريا طبيعة خاصة في وصول الإسلام إليها على يد التجار والمتصوِّفة، كما أن جغرافيتها وتاريخها لهما أيضًا طبيعية خاصة، وهذا كله سوف يتضح للقارئ الذي يجد نفسه متنقلاً بين الغابات والمصانع والمدن

والقرى، وبين قصص الحب بأنواعها، وما يجري في داخل المعتقلات والسجون، وما يقوم به المبشرون والصهاينة من ألاعيب، وعلى الرغم من أني لم أزر نيجيريا في حياتي، إلا أن أحد المهندسين النيجيريين قال لي في المدينة المنورة: " لم أر كاتبًا يفهم دقائق الحقائق في بلدي مثل "نجيب الكيلاني" في قصته " عمالقة الشمال (١) ".

هذا ما استرعى انتباهي ووجدت فيه ما يختلف عن إبداع الآخرين، حيث يعني " نجيب الكيلاني " بموضوع جديد وحيد، وفي الوقت نفسه يحقق لنا نحن المسلمين ضرورة غير كونها علمية، فهي ضرورة دينية، وحضارية وثقافية وسياسية في الآن نفسه، فمن لم يهمه أمر المسلمين فليس منهم !!، والأديب المسلم " نجيب الكيلاني" نجح في صنع هذه المعادلة كما سنرى في دراستنا التحليلية لروايته هذه، فـ " الفن تعبير رائع ممتع عن النفس والحياة، يتميز بالأصالة والصدق، تعبير عن التجارب الإنسانية في شكل فني غايته، الإمتاع والإفادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل..."(٢).

---

١) تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ص ٤٧ وما بعدها بتصرف. نجيب الكيلاني ـ دار ابن حزم ـ أولى ـ ١٩٩١ م ـ بيروت.

(٢) الإسلامية والمذاهب الأدبية ص ١٣، ١٤ـ نجيب الكيلاني ـ مؤسسة الرسالة ـ رابعة ـ ١٩٨٥ ـ بيروت.

متن الدراسة التحليلية

دعونا نقلب صفحات رواية " عذراء جاكرتا " [١] ــ مصدر الدراسة ــ هذه الرواية تدور أحداثها على أرض دولة إندونيسيا المسلمة عندما احتلتها دولة الصين الشيوعية... وظلت تحارب حتى تخلصت من هذا الاستعمار، وقضت على كل طغاته، واندحرت ــ عبر هذه المواجهة ــ دولة الصين و تقوضت أفكارها وفلسفتها، وعدتها وعتادها، وأدواتها من الوطنيين الخونة الذين خانوا بلادهم وتآمروا على دينهم !!، وعندئذ انتصر الإسلام، وانتصر تصوره العظيم الذي ربىَّ جنوده على الإخلاص والتضحية والفداء !!.

تدور رحى الأحداث في هذه الرواية عبر فريقين من شخوص الرواية يعبر كل منهما عن فكره وفلسفته وإيديولوجيته(٢)، ويمثل كلاهما طرفي المواجهة الحضارية ؛

---

(١) نجيب الكيلاني ــ دار النفائس ــ ثامنة ــ ١٩٨٤ ــ بيروت.

٢) ليس هناك من عمل إبداعي إلا وينهض على فكرة أو تصور أو رؤية أو مذهب أو عقيدة أيا كانت تحاول أن تؤثر فينا بقيمها وطاقاتها الروحية أو الفلسفية.. ولعل كل هذه المصطلحات ما عدا العقيدة أو الدين يمكن أن تنضوي مفاهيما تحت مصطلح الإيديولوجيا (ideology) والذي يعني كما يقول المعجم الفلسفي:

(أ) علم الأفكار. وموضوعه دراسة الأفكار والمعاني، وخصائصها وقوانينها، وعلاقتها بالعلامات التي تعبر عنها ، و البحث عن أصولها بوجه خاص ، كما صوره "دستوت دوتراسي ".

(ب) تطلق على التحليل و المناقشة لأفكار مجردة لا تطابق الواقع.

(ج) عند ماركس، جملة الآراء و المعتقدات الشائعة في مجتمع ما، دون اعتداد بالواقع.ص:٢٩ مجمع اللغة العربية ١٩٨٣- الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.و يقول الدكتور زكي نجيب محمود في مجلة فصول:" إن الأيدولوجيا أصبحت هي الفكرة التي تستبد بصاحبها فيحاول أن يفسر بها الوجود كله و النظم الاجتماعية كلها ، و بناء على ذلك يكون الوجود الاجتماعي كله كأنما هو كتلة واحدة مشتملة على كل أجزائها " فتسيطر على كل نواحي الحياة.

من هنا نلاحظ أن الأيديولوجيا (علم الأفكار) تتصف بالآتي:

=

أولا: هي جهد بشري ، و إن تأثر بالعديد من الروافد الخاصة و العامة ، سواء أكانت فردية أو جماعية أو تاريخية أو مكانية أو فلسفية.

ثانيا: و هي أيضا بالتالي متغيرة لا ثبات لها.

ثالثا: أنها قد تكون من صنع فرد أو مفكر واحد يروج لها ، و ينشرها.

رابعا: أنها قد تتنافر مع الدين أو ترفضه رفضا قاطعا.

خامسا: أنها تجريدية تحاول أن تجسد رؤيتها في الواقع ، و لعل الماركسية و ما جرى لها منذ ماركس و إنجلز حتى جورباتشوف ، تعطي صورة لضرب من الأيديولوجيات التي سادت نصف سكان العالم أو أقل قليلا طوال ٤٥ – ٧٠ عاما تقريبا ، ثم تخلت أخيرا عن أهم الأسس التي نهضت عليها الشيوعية.

سادسا: لكونها جهد بشري محض ، فهي قد تخطئ و قد تصيب ، لأنها بخلاف الدين لا تستند على أصول ثابتة خالدة أبد الدهر.

سابعا: حصرت نفسها في إطار النظم و القوانين و السلوكيات المتصلة بالحياة المادية (غير معصومة).

نقلا عن: نحو مسرح إسلامي ص:٣٢، ٣٣ نجيب الكيلاني ــ دار ابن حزم ــ ١٩٩٠ م ــ بيروت.

أما الدين ((religionوهو ما نجعله مرادفا للعقيدة ولو تجاوزا فإنه بحسب المعجم الفلسفي:

(١) مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان، وللعقل مجال فيه. يقول الجرجاني في تعريفاته: الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول (صلى الله عليه وسلم).

(٢) الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار، فالشريعة من حيث تطاع تسمى دينا، ومن حيث تجمع الناس تسمى ملة. قال الفارابي في كتاب الملة: الدين والملة يكونان اسمين مترادفين ". ص: ٨٩

ومن هنا يتضح أن " الدين غير الإيديولوجيا.. وإن كان الدين يمكن أن يكون مصدرا لإيديولوجيا مرتبطة بالسماء، وان الإبداع لا يمكن أن ينفصل عن الدين أو الإيديولوجيا على أي نحو يقول الدكتور "عز الدين إسماعيل " فيما نقله " نجيب الكيلاني " عن مجلة " فصول "المصرية / العدد الثالث / ص ٤: " حقا إن كل مادة للمعرفة تستبطن أيديولوجية ما، إن لم تكن صريحة فيما تسعى إلى تأكيده من التوجه الأيديولوجي، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون مثارا للخوف والتقوقع، ذلك أن كل معرفة جديدة ــ مهما كان توجهها الأيديولوجي ــ هي شحذ للتفكير،وتجديد للمناخ الفكري، وإفساح في نطاق الوعي الفردي والجماعي على السواء، ومن خلال ذلك تكتسب اللغة خبرة جديدة ، ويكتسب العقل مزيدا من القدرة على التحليل والتمحيص ، أي يزداد حظ المجتمع من الحكمة".

ولقد جعل "برشت"الغاية التعليمية أو التربوية خاضعة للعملية الجمالية في المسرح بحيث يجمع المسرح بين الإمتاع والترويح في جانب،والتوجيه أو التغيير،واتخاذ المواقف في جانب آخر.

ويشير" إقبال عروي " (مجلة المسلم المعاصر) إلى أمر مهم ، إذ يقول:

طرفي الصراع بين كلا التصورين أو الرؤيتين إذا جاز التعبير وإن شئنا لقلنا بين التصور الإسلامي وإيديولوجيا الفكر الشيوعي، فنجد شخصيات وهي تمثل ال رؤيـــة أو التصـــور الإسلامي:

١ــ " فاطمة ": فتاة جامعية تنتسب لجماعة ماشومي الإسلامية.

٢ــ " أبو الحسن ": طالب جامعي خطيب " فاطمة ".

٣ــ "حاجي محمد إدريس ": أحد العلماء المجاهدين ووالد الفتاة " فاطمة ".

هؤلاء أبرز الشخصيات المحورية في مواجهة كل من:

١ــ " عيديد": زعيم الحزب الشيوعي الإندونيسي.

٢ــ " تانتي ": زوجة " عيديد ".

٣ــ " أونتونغ ": قائد الحرس الجمهوري.

٤ــ "موروني ": خليلة أونتونغ.

وجميعهم يمثلون الطرف الآخر من المواجهة، وهم من يعبرون عن الإيـــديولوجيا الفكرية للمستعمر الصيني الشيوعي.

"أما بالنسبة للعرب،فإن الأمر يختلف عن الحالة الغربية، مما يعطي للـــدعوة إلـــى الالتـــزام فـــي الأدب الإسلامي مشروعيتها المتفردة ؛ لأن هذا الذي نطلق عليه مصطلح العرب يمتلك رسالة حضارية تتمثل في الإسلام الهادف إلى تحقيق إنسانية الإنسان،وسعادته المفقودة... والمثقفون العرب يتجاهلون هذه الحقيقة التي شرحها "روجيه جارودي" بالتفصيل..."

ويؤكد د.زكي نجيب محمود مرة أخرى على التلازم الوثيق بين الأدب المبـــدع ، والأيـــديولوجيا العامـــة والخاصة من جهة أخرى، ويرى أن الغلبة لصيغة الإيديولوجيا التي تجمع ما هو حيوي في تراثنـــا ؛ لنصون به هويتنا التاريخية، وما هو جوهري في ثقافة الغرب حتى نكتسب بالجمع بـــين الصـــيغتين صلاحية الوجود.

ويقول مسلك ميمون (فصول ــ العدد الخامس ــ المجلد الرابع): إنه لا يمكن تصور أدب بدون أيـــديولوجيا،إذ أنها محور الارتكاز في كل عمل أدبي، ولابد من إيديولوجيا تقدم تصورا عاما للكون والإنسان فـــي أقصـــى أبعادها، كما تقول أمنية رشيد: إن "الأيديولوجيا علاقة أساسية عضوية في العمل الفني".

هذا وهناك العديد من النصوص التي تؤكد أهمية وعضوية العلاقة بين الإبداع والدين أو الإيدولوجيا. نقلا عن: نحو مسرح إسلامي.. ص: ٣٩،: ٤٠ مواطن متفرقة.

بطل هذه الرواية " فاطمة " ؛ عذراء جاكرتا، ولعل في العنوان ما يوحي بما تطفر به الرواية من رمزية القيم الإنسانية النبيلة التي جاء بها الإسلام ؛ ذلك الدين الحنيف الذي أُترع بالقيم التي ربما تنقدح شراراتها، وتستطع في شخصية المرأة أكثر من الرجل، ففي هذا الجو الاستعماري الخانق المليء بالدسائس والمؤامرات حينًا، وبالإغراءات والتخويف والمطاردة أحيانًا أخرى، وفي هذا الجو المظلم والواقع المدلهم يستطع نجم هذه الأنثى الطاهرة، ويلمع بريق جوهرها النفيس في مواجهة هؤلاء الماكرين الفاسدين، والذين يتبدى عبر صراعهما في هذه لرواية ؛ المواجهة الحضارية المتأججة بين متقابلين من رموز كل فكر أو إيديولوجيا أو عقيدة...

تعالوا نتعرف ــ عبر عدة مقاطع ــ على شخصيات أو أدوات هذه المواجهة حتى تتضح معالم رؤية أو تصوركل فريق، ودوره في إثراء أو تأجيج الصراع أو أدرمته على الوجه المروم.

فلنحاول أن نتعرف على " عيديد " وزوجه " تانتي " عبر هذا الحوار(١).

" تناول " عيديد " الكأس للمرة الخامسة، ومع ذلك فقد بقي محتفظًا بتوازنه، متمالكًا لأعصابه، عيناه تومضان في فرح طارئ، وملامح وجهه قد بدت منبسطة لا يعلوها هَمٌّ أو كدر، كان متوسط القامة، إندونيسي السمات بكل معنى الكلمة، جذاب السمرة، ومال على زوجته ورفيقة كفاحه" تانتي " وهمس:

ــ " أنت زوجة ورفيقة... امتزج حبنا بالمبادئ... أليس هذا أروع حقيقة في الوجود ؟ "، هزت " تانتي " كتفيها في امتعاض، واستدارت صوب الباب المغلق وهي تقول في غير قليل من الضيق:

ــ " أنا أعرفك... "

ــ " بالتأكيد... يا قمري المضيء... أشرقت عليّ في سماء موسكو أثناء أعوام الدراسة في الخارج... يا لها من لحظات رائعة... عندما التقيت بك، نسيت كل فتيات الروس الجميلات الشقراوات وأصبحت أنت أروع حقيقة فيّ.."

أشاحت بوجهها وهتفت مقاطعة:

---

(١) عذراء جاكرتا ص ٥ وما بعدها. نجيب الكيلاني.

ـ " أنت لا تفكر إلا في نفسك... "

بدأ على وجهه الأسمر ومضات من غضب وقال:

ـ " أنا حامي الجماهير الكادحة... وهبت حياتي لقضيتهم العادلة فكيف ترمينني بالأنانية، يا " تانتي " نظرت إليه في غيظ:

ـ ألاعيبك يا " عيديد " لا تخفى عليّ وأنا أعرف نزواتك العديدة في منظمة "قيرواني ".

ـ " أنا أعرف جيدًا ما يدور في اجتماعاتك المغلقة بهن... "

نظر إليها في أسف وقال:

ـ " لشد ما أخاف أن تكون الأفكار البورجوازية المتعفنة قد تسللت إلى رأسك الجميل..."

صرخت في غيظ:

ـ " أنا امرأة... ".

ـ " وأنا رجل... "

ـ " لقد انتهى عهد السلطان وحريم السلطان يا عيديد... "

ـ " هذه حقيقة... "

ضربت بقبضتها على منضدة من الخشب الثمين مطعمة بالعاج والفضة وهتفت:

ـ " أصبحت أكره كلمة حقيقة... إنك تكذب... ثم تتحدث عن الحقيقة.."

أتنكر أنك على علاقة بمدام ساسترو.. الرفيقة المحترمة.. وسورابا.. ومورني.. وغيرهن.! ابتلع ريقه وقال في تلعثم:

ـ " افهميني يا حبيبتي... لو تناوبتك الشكوك هكذا في كل امرأة أقابلها، فمعنى ذلك أن أعمال الحزب ستتعطل... نحن نسابق الزمن ولا مجال لتضييع الوقت... يجب أن تدركي أنك زوجة زعيم الحزب، ووزير من أكبر الوزراء، وعضو المجلس التأسيسي، وعضو البرلمان، ونائب رئيس المجلس الاستشاري الأعلى، والحامل لأعلى وسام من أوسمة الدولة... ".

ضحكت في سخرية مؤلمة وهمست في حنق:

ـ " لا شك أن هذه مؤهلات عظمى تمنحك الحصانة الكاملة لتفعل ما يحلو لك... ".

ثم انتصبت كنمرة مفترسة وهدرت:

ـ " يجب أن تفهم أن كل ذلك تحت حذائي... أنا امرأة لها كرامتها..."

أخذ يلوح بسبابته اليمنى مستنكرًا ويقول، وقد لعبت الخمرة برأسه:

ـ " لا... لا... ليست هذه " تانتي" التي أعرفها، هذه أعراض تنتاب المرتدين في كل العصور... إذا جعلوا المبدأ العظيم دون تطلعاتهم الشخصية..."

مدت رأسها نحوه، وأحنت خصرها النحيل، وقد وضعت يدها اليمنى وسطها، وبسطت كفها اليسرى تجاهه، وقالت:

ـ " وأنت !! أنت تعبد ذاتك... أنت كل شيء... والحزب بماله وكادراته... وأيضًا نساؤه الجميلات كل ذلك من أجلك... "

هز رأسه وتمتم:

ـ " أنت في حاجة إلى غسيل مخ... "

ـ " لست إقطاعية... ولا رجعية... ولا ثورة مضادة... "

أخذ يضحك.. ويضحك..

طوقها بذراعيه، وطبع على ثغرها قبلة طويلة، فهمست في ضعف ظاهر:

ـ " إني أكرهك... "

ـ " النساء يعكسن البديهيات... "

ـ " لتكن وزيرًا أو زعيمًا.. لكنك نذل.. "

ضحك ثانية من كل قلبه، ثم قال:

ـ "إن إحدى زوجات الرئيس تذوب وجدًا بين ذراعي..لكني لا أطيقها.."

ـ " ولماذا تراقصها إذًا ؟ ".

ـ " لسبب بسيط يا حبيبتي... حتى لا يغضب الرئيس.. إن سوكارنو بالنسبة لنا فرصة تاريخية... ومن ثم، فإن مراضاته والمحافظة عليه " حتمية تاريخية " كما يقولون... إنه أعظم نصير رجعي للفكر التقدمي... ".

قالت وهي تتناول كأسًا:

ـ " أصبحت أمقت هذه المصطلحات الحزبية لكثرة تكرارها... "

شرد " عيديد " بضع لحظات ثم قال:

ـ " سنجعل من الرئيس قنطرة نعبرها إلى قمة السلطة.. وبعد ذلك نسحقه كحشرة.. إنه من مخلفات الرجعية والعصور البالية.. وفي أكتوبر العظيم.. ستخفق الرايات الحمراء، وتتألق المطرقة والمنجل في شوارع جاكرتا.. وفي آلاف الجزر الإندونيسية.. وستجدين ملايين الصور لزوجك " عيديد " تغطي الجدران والنوافذ والأبواب.. واللافتات.. وستتحدث صحف العالم عن الرفيق "عيديد "... كما يتحدثون عن "ماوتسي تونج ".. و" ستالين ".. و "لينين "...

سأكون أحد أنبياء الشيوعيين الكبار.. وسأجعل من الجزيرة الصغيرة التي ولدت فيها " بليتونغ " قبلة الزوار والسياح.. وسأجعل من زوجات الجنرالات الكبار في الجيش الإندونيسي أرامل.. وسأسوق علماء الدين الإسلامي كما تساق الأغنام.. هذه الحيوانات المنقرضة.. سأحكم مائة مليون من البشر.." عيديد ".. الذي أمامك الآن.. سيكون "إله " إندونيسيا الجديد، ما معنى كلمة " إله " يا " تانتي "؟، إنه القوة الخلاقة المسيطرة الجبارة.. سأكون كذلك.. ".

قالت "تانتي " في خبث وقد هزتها كلماته، وزايلها غضبها، وأرادت أن تعابثه:

ـ " لكن الإله غفور.. رحيم.. باق.. وأنت.. ستموت يومًا ما.. "

احتقن وجهه في غيظ وتمتم:

ـ " أنا اختار من الصفات ما يروق لي.. "

ـ " ستكون إلهًا ناقصًا أو نصف إله يموت... "

نظر إليها وقد تخضلت أهدابه بقليل من الدموع، ثم دق المنضدة بقبضة متشنجة وصرخ:

ـ " لا تذكري الموت... "

أحنت رأسها في دلال وقالت باسمة:

ـ " آمنت بك... "

ابتسم..

ثم عاد يقول: " إن المستقبل في أيدي الشيوعيين، وإن نسيم الشرق يهب ليطغى على نسيم الغرب... "

قالت: " أجل.. التاريخ يعيد نفسه... "

هتف محتدًا: " التاريخ لا يعيد نفسه.. تلك فكرة رجعية منتنة.. في كل يوم جديد، المادية الجدلية تقول ذلك.. صور جديدة للصراع تنبت دائمًا.. ومبادئ جديدة تولد، وأنبياء لكل عصر.. هذا فجر انتصار دكتاتورية الطبقة.. الغرب يموت.. يتآكل.. لأنه يضاد منطق الحتمية.. والشرق ينضج ويصحو ويسيطر.. لأنه فهم مغزى القصة الأزلية.. وأدرك معنى التاريخ.. أنظري يا " تانتي ".. إنني أرى كل شيء أمامي، الرايات الحمراء.. الدماء تصبغ الجزر.. وتحيل الورود الصفراء إلى حمراء.. الفقراء يغنون أغنية قوقازية حلوة.. انظري.. الكتب المقدسة القديمة كلها تتحول إلى أكوام من الرماد، جماجم العلماء الخربة تنهشها الكلاب.. لا شك أن جدي كان تتريًا.. إني معجب بتاريخ المغول والتتار.. وثورة القرامطة والزنوج.. وعبيد روما.. وأتباع مزدك في فارس.. هؤلاء الذين كانوا يستحقون المواضعات القديمة.. كانوا يجربون كل شيء.. لكن للأسف لم ينجحوا تمامًا.. قال لي مهندس هولندي شيوعي إبان الاستعمار الهولندي لبلادنا: " أي عيديد.. الدين هو العقبة الوحيدة في طريق تقدمكم.. " وكان أبي عبد الله يرتجف كلما تكلمت عن الدين.. ويفتح القرآن ليقرأ فيه.. كان بدني يقشعر وأنا أسمعه يرتل الآيات.. وكانت خطاياي أكثر من أن يغفرها الله.. الحقيقة يا" تانتي" إن اليأس ملأ كياني.. وأنا أكره أن يحكمني أحد.. لقد خلقت لكي أكون حاكمًا.. وخلقت لكي أفعل ما يحلو لي.. ".

اقتربت منه " تنانتي " وربتت على كتفه في حنان وقالت:

ـ " أنت تهذي يا "عيديد".. كفى كلامًا.. "

لم يكترث لها، بل انطلق يتكلم: " وحاول المبشرون أن يسيطروا على عقلي ليحولوني إلى الديانة المسيحية عرضوا علي المال.. والمنح الدراسية.. ولوحوا بفتيات جميلات كالورود اليانعة.. زعموا أن الاعتراف أمام " الأب المقدس " يمحو الذنوب.. آه يا " تانتي " هذا عصر الفلسفات الكثيرة.. إن رأسي يدور.. السعيد في هذه الحياة هو

الحيوان.. لن يبعثه الله ولن يحاسبه.. تمنيت في أوقات كثيرة أن أكون حيوانًا.. بلادنا يطحنها الشقاء.. ".

ضحكت " تانتي "، وقالت وهي تخلع معطفها، وتبدو مفاتنها:

ـ " هون عليك يا "عيديد".. ما الذي يشقيك ؟، هذا قصرنا ممتلئ بكل شيء.. والخدم يروحون ويجيئون.. ولدينا أموال طائلة.. والحزب بكادراته تحت تصرفك.. ".

ثم غمزت بإحدى عينيها:

ـ " ونساؤه أيضًا.. يقبلن يديك.. "

ضمها إلى صدره في حرارة، وتمتم:

ـ " حياة الحيوانات.. ممتعة.. ممتعة للغاية ".

فـ "عيديد " قائد الحزب الشيوعي، ما هو إلا عربيد يعاقر الخمر ويراقص النساء، كالحيوان الجامح لا يفرق بينهن على الرغم من كونهن زوجات لآخرين، محرمات عليه، فهو كالذباب يتساقط على الجيف دون أدنى تمييز أو حرج !!، يحمل بين طيات نفسه أفكارًا خبيثة، فهو لا يبالي من أجل الحصول على المراكز التي يتغياها أن يبذل نفسه ودينه ويحطم كل شيء حتى يصل إلى هدفه.

ـ ستخفق الرايات الحمر، وتتألق المطرقة والمنجل في كل شواع جاكرتا، وفي كل الجزر الإندونيسية.. وستجدين ملايين الصور لزوجك " عيديد " تغطي النوافذ والجدران والأبواب.. وتتحدث صحف العالم عن الرفيق " عيديد" كما يتحدثون عن "ماوتسي تونغ وستالين ولينين " سأكون أحد أنبياء الشيوعيين الكبار، وسأسوق علماء الدين الإسلامي كما تساق الأغنام، هذه الحيوانات المنقرضة.. سأحكم مائة مليون من البشر، " عيديد" الذي أمامك الآن.. سيكون إله إندونيسيا الجديد... " [١].

كل هذا يهون في سبيل تحقيق الهدف الأكبر سيطرة الشيوعية على بلاد المسلمين، وإن كان هذا لا يتحقق إلا بكل هذه النقائص والحيوانية والمؤامرات والأفكار المنحرفة والقيم المرذولة فلا ضير، وبها ونعمت !!

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٩.

ومن الملاحظ أن الأديب لم يعرض للمواصفات الخارجية والحسية أو البنائية لشخصيتي " عيديد " و " تانتي "؛ لأن المواجهة هنا حضارية والصراع فكري ديني وإيديولوجي.. فالمواجهة ستكون بين إيدويولوجية الشيوعيين وعقيدة الإسلاميين بكل نقائها وطهارتها وحيويتها القادرة على البناء والتطور الحضاري.

ولنر شخصية / عذراء جاكرتا / " فاطمة " بنت العالم المسلم المجاهد "حاجي محمد إدريس "، عندما يدبر الكاتب لقاءً يجمع بين " عيديد " و " فاطمة".

فعندما ألقى " عيديد " محاضرة على من فوق مدرج الجامعة تحدث فيها عن حتمية التاريخ، وحكم الطبقة البرجوازية المتعفنة (الإسلامية !)، والإمبريالية وأعوانها، والرجعية ومخططاتها، والاتجار بالدين، وعن الدين كأفيون الشعوب ".

وخلص إلى أن الحلال والحرام بمفهومهما الصحيح يتركز في أن كل ما نهض بالشعب، وحقق نفعًا ماديًا ويساعد في إشعال الثورة " التقدمية "، فهو الحلال !! ولا شيء غيره، وعكس ذلك تمامًا هو الحرام، بصرف النظر عن كل ما ورد من قيم عتيقة، ونصوص قديمة " [١].

وهو يلمز بقيم الإسلام (الحلال والحرام) ويعرِّض بالنصوص الدينية التي جاء بها الإسلام دين المسلمين الحنيف ؛ التي تدعو إلى القيم الإنسانية الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام " ويدعوها: قيما عتيقة !!.. ونصوصا قديمة !! وهنا [٢]:

" شقت الصفوف فتاة غريبة الشأن.. قاصدة المنصة التي يتكلم من فوقها " عيديد "، كانت في حوالي العشرين من عمرها، أجمل ما فيها عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيمانًا وجلالاً، وكانت طويلة الأكمام، ترتدي على رأسها شالاً أبيض يخفي شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر، وقالت وهي تقترب من "عيديد ":

ـ " أيسمح لي السيد أن أدلي بتعليق... ؟ "

انحنى "عيديد" في أناقة، وافترَّ ثغره عن ابتسامة كبيرة، وأفسح لها مكانًا أمام الميكروفون..

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ١٣.

(٢) عذراء جاكرتا: ص ١٣ وما بعدها.

قالت " فاطمة " ــ وهذا هو اسمها ــ:

ــ " إننا نغالط أنفسنا حينما نظن أن المرأة كالرجل تمامًا.. فالعلم يؤكد أن لكل طبيعته.. هرمونات الرجل.. غير هرمونات المرأة.. قوة عضلاتها غير قوة عضلاته.. وظائفها الفسيولوجية غير وظائفه.. أيمكن أن تكون هذه الحقائق كلها غير ذات موضوع ؟؟ أيصح أن يكون ذلك التركيب العضوي والنفسي دون تأثير ؟"

إن الخطب الحماسية.. غير العلم.. هذا ما أريد أن أؤكده.. "

وحدثت ضجة. وغمغمات عالية كان مصدرها فتيات " قيرواني "، غير أن "عيديد" ابتسم، وأشار عليهن أن يصمتن حتى تكمل "فاطمة "حديثها...

وعادت فاطمة تقول:

ــ " والحلال والحرام عقيدة دينية مصدرها الله.. جاءت على أيدي أنبيائه الكرام.. وهي أعلى منالاً من فكر الإنسان وتصوره القاصر.. القتل حرام.. السرقة حرام.. ولن تصدق فلسفة ــ سواء أكانت ماركسية أو ميكافيلية ــ في قلب الصورة..

والحكم لا تحدده مصلحة طبقية مهما كان وزنها، ولكنه مجموعة من القواعد العادلة التي أقرتها شريعة الله لمصلحة جميع الناس.. واختلاف الناس في المهارات الشخصية والجسدية والمادية يجمعهم على معنى سامٍ.. هو الأخوة.. الأخوة غير العداء الطبقي.. الأخوة تجعل من الجميع سواسية كأسنان المشط أمام الله وأمام القانون.. ".

وساد الهرج والمرج مرة ثانية.. إلا أن " عيديد " لوح بيده مهدئًا، فانصاع الجميع لرأيه، ومضت " فاطمة " تقول:

ــ " الماركسية بمفهومها الطبقي هي الحقد.. والعقد النفسية.. هي إرساء قواعد التناحر الدموي، وإتلاف القيم الإنسانية الرفيعة..

ولم يكن الدين مخدرًا للشعوب في بلاد الإسلام.. كان مجيئه ثورة على الفساد والظلم والتبعية والعبودية.. كان باعثًا للقيم الفاضلة في قلب الإنسان.. كان مولد حضارة.. هذا ما هو ثابت في التاريخ القديم والقريب.. المؤمنون وحدهم هم الذين

تصدوا لجبروت " هولندا " وصارعوا " اليابان " وحققوا الحرية.. وسحقوا شيعة الكفر والعبث في عام ١٩٤٨" [١].

إننا نلعب بالنار إذ نستغل انهيار الأوضاع الاقتصادية، ومأساة الفقر، في تحويل الناس إلى العقائد الفاسدة الدخيلة.. ونقضي على تميزنا القومي والديني بفلسفات مرقعة... ".

ولم تستطع فتيات " قيرواني " هذه المرة أن يتصدين لموجة التصفيق العارمة التي قوبلت بها " فاطمة " تأييدًا وتحبيذًا لآرائها.. " [٢].

هكذا استطاعت " فاطمة " الشابة المسلمة التي تربت على قيم الإسلام الصحيحة في بيت والدها الداعية المسلم المجاهد، أن تفند كل آراء "عيديد " الغر الفاسدة، وأوضحت أن ما يبثه ويؤمن به من آراء هي في حقيقتها رؤى فاسدة ومنبثقة عن إيديولوجيا من وضع البشر الحاقدين على الإسلام بوصفه دينا ربانيا جاء به رب هذا الكون ليسوس به كل مفرداته دون أن يطغى إحداها على الآخر، ومن ثم فأفكاره عن الإسلام مخالفة للواقع في بلاد الإسلام. وإن كل قيم الشيوعية التي يروج لها على الرغم من كونه مسلمًا اسمًا فهي قيم شائهة، تتحطم على جدرانها قيم البناء في المجتمعات المتحضرة. ومن هنا، ينبغي عدم الانخداع بما يردد هذا الشخص أو الانجرار وراء ترهاته وأكاذيبه وأفكاره الخادعة؛ لأنها غير حقيقية ومزيفة ولا يمكن أن تنهض لأن تبني مجتمعًا صالحًا !!.

فما كان من " عيديد " الذي أدرك أنه وقع في فخ نصبته له هذه الفتاة ، إلا أن أسرع إلى المنصة، ثم ردد نفس الكلمات التي كان يخدع بها جماهير العمال، وقف يقول: ـ " لله ما في السماوات وما في الأرض.. إنني أطالب بتحقيق عدالة الإسلام.. التي تحارب الفقر والظلم والمجاعة والمرض والجهل.. لكن فئة من الناس تريد للشعب الإندونيسي المسلم أن يظل فقيرًا مريضًا جاهلاً حتى يستطيعوا أن يبقوا ويحتفظوا بمراكزهم.. إنهم يدعون أنهم مسلمون، بينما هم يحاربون تعاليم الإسلام.. إنهم يتهموننا

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ١٤، ١٥.

(٢) عذراء جاكرتا: ص ١٥.

بالإلحاد والشيوعية.. فإذا كان الخير والرفاهية هو ما يسمونه شيوعية فمرحبًا بالشيوعية..

إنني قرأت القرآن والتفاسير كلها، فلم أجد جملة واحدة تقول: " إن الشيوعية جريمة، أو الشيوعية كفر ".. فالإسلام يحارب الفقر والجهل والمرض.. وهذا ما تدعو إليه الشيوعية.. فالشيوعية والإسلام شيء واحد... "

وكان التصفيق هذه المرة ضعيفًا واهنًا، الكثيرات لم يستطعن أن يفهمن كيف تكون الشيوعية هي الإسلام ؟.. فللشيوعية رأيها المعروف في الأديان، والتقاط من هنا، ومعنى من هناك، لا يفيد القضية المطروحة في هذا الوسط الجامعي" (١).

عاد " عيديد " إلى أكاذيبه، علها تنقذه أمام هذه الفتاة، محاولاً إقناع الحضور بأن الإسلام في هذا الجانب هو والشيوعية شيء واحد.

أرأيتم كيف هذا الدَّعي يروج ويدلس على الحاضرين من شباب الجامعة ؟!!.

وهنا ثارت ثائرة الفتاة " فاطمة " ولم تخف شجاعتها في مواجهته بالرغم من معرفتها بقدره وسلطته، لكن.. ولو.. !!! فلن تقبل أن يهان دينها، ويتساوى الدين الرباني الحنيف ؛ دين العدالة والتحضر والبناء، بإيديولوجيا " ماوتسي تونج " الشيوعي أو ماركس أو لينين!! وهي لن تقبل الدنية في دينها على حساب سلامها الشخصي، أو مجاراتها لهذا المغرور !! فهتفت في عصبية:

ـ " أنت تسخر من عقول الناس أيها الوزير.. وتخدعهم... "

لكن كعادة الطغاة والمستبدين يجيدون الهرب والتعلل بالأعذار الواهية للهروب من المواجهة، وهنا فكر " الذئب " بأن ينسل من حلبة المواجهة دون أن يخسر المعركة !! فاخترع عذرًا بعد أن أسقط في يده، وغاص في خجله، وتندى جبينه بالعرق، اقترب من مكبر الصوت، وقال:

ـ " إنني سعيد بآراء الزميلة الفاضلة.. فلكل وجهة نظره.. وسوف أستكمل معها النقاش بعد المحاضرة، فقد طالت بنا الجلسة.. " (٢).

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ١٥.

(٢) عذراء جاكرتا: ص ١٦: ٢٢.

وهنا ــ وبعد انفضاض المحاضرة ــ خشيت أن مقابلة " عيديد " التي ضرب لها موعدًا واعتراها الخوف، وغاصت في غياهب التفكير مما يخبئه لها هذا الغر المأفون التي تعرف نفوذه ومكره ودسائسه التي يحيكها لخصومه سيما من أمثالها وأبيها ممن يراهم أعداء مشروعه التوسعي.. وهي أنثى وتعاني هي وأبيها وكل من على شاكلتها من المسلمين المتمسكين بقم دينهم وأخلاقه ومبادئه ويرون أمثال عيديد خائنا لدينه ووطنه ومنافقا لأعدائه وخادما في بلاطهم والإسلام لاينكر عليها هذا التخوف أو هذا التوجس فالإنسان خلق ضعيفا وأمر ألا يلقي بنفسه إلى مظان التهلكة ومن ثم ينبغي أن يتحسس موطئ قدمه، ولكن ــ في الوقت نفسه ــ نفث في روعه من الطاقة والقوة الإيمانية ما يحمله على المقاومة والمواجهة ابتغاء وجه الله تعالى وطمعا فيما أعده لأمثالها من المجاهدين والمجاهدات.. " فعيديد " كاتب كبير في الصحف والمجلات، وله نفوذه وطغيانه الذي لا قبل لها ولا لأبيها به، فاستشارت والدها " حاجي محمد إدريس " فأشار عليها بما سنراه عبر هذا الحوار:

ابتسم حاجي محمد وقال:

ــ " أرى أن ذهابك عديم الجدوى "

ــ " وهذا إذا قيس بمدى تجاوبه لرأي.. لكني أهدف إلى شيء آخر.. أريد أن أرى.. مجرد الرؤية ".

مسح على لحيته البيضاء، وقال:

ــ " عيديد تلميذ مخلص لعامر شريف الدين.. زعيم الثورة الشيوعية في عام ١٩٤٨.. وابن بار للثقافة الروسية والصينية.. الجميع يعرفون ذلك.. هو ثعلب خطر... "

قالت فاطمة في لهفة:

ــ " إنه لا يملك سوى الكلمات الطنانة.. "

ــ " لكنه يا ابنتي ذو طموح خطر.. وله تأثير كبير على رئيس الدولة سوكارنو.. "

ــ " ليكن.. إن إيماني أقوى من سفسطته.. "

ــ " لن تصلي إلى نتيجة... "

ــ " إن له قطاعًا كبيرًا من المؤيدين ويجب كشفه.. "

ضحك حاجي محمد إدريس، وقال:

ـ " أربعة أخماس العالم مخدوعون بطريقة أو بأخرى.. "

ـ " أود أن أقابله... "

ـ " حسنًا.. لا تذهبي قبل صلاة المغرب... "

لكن شجاعتها وكبريائها حالا دون خضوعهما لخوفها وهواجسها، واستغلت مع كل هذه المخاوف، وسمت نفسها فوق كل هذه الوساوس، واعتصمت بإيمانها الذي وهبها هذه القوة في مواجهة هذا الغر التافه المتغطرس، الذي يستقوي بالنفوذ والجاه والسلطة والسفسطة الماكرة التي يدعيها، وهنا تتجلى قيم الأدب الإسلامي ودوره في تشكيل هوية الشخصية الإسلامية في الرواية، فالرواية لم تكن أحادية البناء وإنما تتضافر عبر بنائها الفني قيم متعددة ومتنوعة تتجاذبها عوامل الضعف حينًا، وتنتشلها قيم القوة والسمو أحيانًا أخرى، صحيح أن الخوف قد تملكها من أن تلتقيه بمفردها في مكتبه، " لكن إيمانها بعقيدتها ومبادئها الحضارية، وأفكارها الناصعة التي رضعتها مع لبان أمها في بيت أبيها الشيخ العالم الأزهري والداعية الإسلامي المرموق، ذي المكانة المرموقة بين المسلمين في ربوع البلاد.. كل هذا جعلها تقاوم هذا التردد وهذا الخوف " [١]، ولتذهب إلى " عيديد " وليحدث ما يحدث:

حزمت " فاطمة " أمرها، ونفث إيمانها في روحها قوة وعزمًا لا يقاومان، فأخذت طريقها نحو مقر منظمة " قيرواني " التي يجتمع فيها شبيبة الشيوعيين، ولنستمع للروائي " نجيب الكيلاني " وهو يأخذنا إلى هذا العالم / المشهد الذي تغشاه هذه الفتاة بكل شجاعة وانبهار:

حينما دخلت " فاطمة " مقر منظمة " قيرواني " شدت الأنظار إليها بقوة، علقت إحدى الفتيات قائلة " سقطت القديسة " وتضاحكت، وهمست أخرى: "تتزيي بزي الملائكة في عصر الشياطين"، وقالت ثالثة: " أقسم أن هندامها جميل ومثير.. لكن لماذا دخلت هنا ؟ "، مالت عليها جارتها قائلة وهي تغمز بإحدى عينيها في خبث:

---

(١) المرأة في القصة المعاصرة ص ١٣٣ للمؤلف ـ دار طيبة للطباعة ـ أولى ـ ٢٠٠٣م ـ أسيوط.

ـ " هي على موعد مع الزعيم ؟؟ "

تلعثمت خطوات " فاطمة "، لم تكن تدري أين تتجه، لكن اضطرابها لم يطل، فقد قدمت فتاة ناهد، تضع على صدرها شارة الحزب، وترتدي سروالاً أصفر، و صدارًا صوفيًا يبرز مفاتنها، وطاقية بيضاء عليها رسم المطرقة والمنجل... وتقدمت صوب " فاطمة " وقالت:

ـ " هو قادم بعد لحظات.. "

الغرفة التي جلست فيها " فاطمة " تتوهج بالألوان الحمراء، والسجاجيد الفاخرة، وهناك منضدة كبيرة حولها أكثر من ثلاثين مقعدًا، وصورة ضخمة معلقة لرجل أصلع، يبدو صفراوي المزاج " تلك صورة لينين ".. وعلى مقربة منها صورة الرجل الحديدي ذي الشارب الكث " ستالين ".. صاحب الحركات التطهيرية الدموية الذي صب الروس عليه اللعنة بعد وفاته... " وعلى الجدار المقابل العجوز الذي يحكم ثمانمائة مليون من البشر " ماوتسي تونج " الشاعر.. المحارب، الداعي إلى الثورة الثقافية.. حيث كان الطلبة والطالبات يضربون أساتذتهم بالأحذية.. ويمرغون كرامتهم في الأوحال... " ثم.. هناك شعارات كتبت بماء الذهب... وشخصيات أخرى ثانوية كلها دخيلة.. لم تنهض على أرضنا أو لها تاريخ في بلادنا.. نحن هنا في هذا المكان نستعير كل شيء.. حتى البطولات.. " وجاء " عيديد "... كان أنيقًا كعادته باسمًا..

ـ " إنني سعيد بهذا اللقاء.. وبرغم مسئولياتي الكثيرة.. إلا أن أروع اللحظات لدي هي التي أجد فيها إنسانًا يفهمني.. ويدرك أبعاد الحقيقة.. المعرفة نور.. أنا ابن هذه الأرض الطيبة.. أنا وأنت صوتان معبران عن مأساة هذا الشعب مهما اختلف النداء... "

أراد " عيديد " الذي يجيد أسلوب المراوغة والسياسة والدهاء أن يتسلل إلى هذه الفتاة الطاهرة، أراد أن يخاتلها ويوهمها أنه وهي أصحاب قضية واحدة، فَلِمَ الخلاف إذن ؟! وعندما لم يقتنع برؤيتها هذه باغتها وصمت برهة، ثم قال:

ـ " حسنًا.. سوف نلتقي عند نقطة أظننا لن نختلف عليها.. إننا جميعًا نؤمن بوحدة الطبقة العاملة... "

رفعت " فاطمة " يدها محتجة وهتفت:

ـ " أنا أومن بوحدة الشعب كله "

ابتسم " عيديد " وقال:

ـ " الشعب هو الطبقة العاملة في الحقيقة.. "

وابتلع ريقه واستطرد:

ـ " والطبقة العاملة هي العمال والفلاحون والمثقفون الأحرار والجنود التقدميون.. "

قالت " فاطمة " في شجاعة:

ـ " الطبقة العاملة في نظرك من يؤمنون بفلسفتك... "

ـ " شيء كهذا... "

ـ " لن نلتقي إذن... "

ـ " اللقاء ممكن دائمًا... "

ـ " ليس في المبادئ أنصاف حلول... "

ـ " نحن نسميها سياسة مرحلية.. أو فترة انتقال.. أو أي شيء."

لم يتضايق " عيديد " إلا عندما قالت:

ـ " أنتم تخدعون أنفسكم وشعب إندونيسيا.. "

ـ " نحن نخطط لحياة أفضل برغم كل شيء.. "

ـ " لكنكم تقتلون أعداءكم..وتخطفون معارضيكم.. أو تضطهدونهم.. "

ـ " الشريعة الإسلامية تبيح ذلك في بعض الأحيان.. "

قالت فاطمة في حدة:

ـ " لستم ممثلين للشريعة.. الشريعة ليست فلسفة تقبل الصدق والكذب.. ولكنها حقيقة إلهية.. "

ربت "عيديد" على كتفها قائلا:" عزيزتي "، فانتفضت وابتعدت عنه قائلة:

ـ " لا تلمسني.. "

ـ " ماذا في ذلك ؟؟ ألم تراقصي صديقا في حياتك ؟ "

قالت "فاطمة":

ـ " زعمت بالأمس أنك مسلم، وتقرأ القرآن، وتعرف التفاسير هل في الإسلام الذي قرأته، ما يبيح مراقصة الأجانب ؟؟ وفي الحفلات العامة ؟؟ "

ضحك " عيديد " حتى كاد يستلقي على قفاه، وقال:

ـ "نحن في القرن العشرين.. ثم ألم تقرئي شيئا عن جواري الخلفاء ؟ "

ـ " لست جارية.. "

أدرك " عيديد " أنها من الفتيات اللاتي يستعصين عليه، تمتم:

ـ "إنني أفخر بك كصديقة ذات شخصية قوية برغم اختلاف الرأي بيننا "

ـ " جئت لكي تقتنعي أو أقنعك.. "

ـ " يفصل بيننا ثلاثة عشر قرنا من الزمان.. "

ـ " إذن انتهينا.. "

ـ " لكن إعجاب الرجل بالمرأة لا يعرف فوارق.. ألم تسمعي عن فيلسوف أحب أو رجل عصري أحب ريفية ساذجة ؟؟ هل قرأت قصة سندريلا ؟؟ "

قالت في بساطة عجيبة:

ـ " أنت عابث.. "

ابتسم وتمتم: " لكي تفهميني يجب أن تقرئي كتاب رأس المال لماركس.. وقصة الأم لماكسيم جوركي.. والجريمة والعقاب لدستوفيسكي. "

نظرت إليه في شيء من السخرية وقالت:

ـ " لي محاولات في كتابة الشعر والقصة.. قرأت لبوشكين.. وجوجول ولهؤلاء الذين ذكرت.. وقرأت مؤلفاتك.. لكني لم أسقط فريسة ثقافة واحدة.. قرأت أيضًا تاريخ الشعب الإندونيسي والتاريخ الإسلامي.. وإقبال شاعر الهند.. وطاغور.. "

قال " عيديد " في برود:

ـ " فلتقرئيها مرة ثانية.. "

ـ " لتفعل أنت ذلك... "

فاجأها بسؤال غريب، لم يخطر على بالها:

ـ " هل تقبلين الزواج ؟؟ "

نظرت إليه في استغراب، وقالت:

ـ " محرم شرعا الزواج من رجل لا دين له.. "

ـ " لكني مسلم.. "

ـ " بشهادة الميلاد فقط.. "

ـ " ليس الفرق كبيرا.. "

سحبت حقيبتها، وقالت:

ـ " السلام عليكم.. "

وظل ينظر إليها، وهي تدق الأرض بثقة حتى بلغت الباب، ثم عالجته بتؤدة، وما أن خرجت حتى صفقته في شدة.. وبقيت صورتها الطاهرة الزاهية مسيطرة على خياله..

لا يدري " عيديد " لما تذكر زوجته " تانتي " في هذه اللحظة بالذات، وأخذ يستعيد لقاءهما معًا في موسكو.. كان كل شيء بسيطًا سهلاً.. تحابا.. ورقصا.. وتنزها في شتى الأماكن.. وعبًّا من كأس النشوة.. ثم تزوجا، لكنه الآن أمام فتاة رجعية فقيرة ترفض الزواج منه.. من وزير.. وزعيم، أكبر حزب شيوعي خارج الصين وروسيا.. هل كان يتصور أن يحدث ذلك ؟ وتمتم في ثقة لا حد لها:

ـ " إن " عيديد " قادر.. وسأعرف كيف أسحق كبرياءك، وأمزق الأوهام التي تغلف رأسك الجميل.. " (١)

" فاطمة " هنا ترمز إلى الفتاة المسلمة، تعبر عن وجهة نظر حضارة سامية، ترتقي بسلوك الإنسان في مواجهة الأخطار والقيم المنحرفة التي تعيق انطلاق الإنسان نحو تحقيق هدفه في الحياة، وهو عمارة الأرض، هذه الرؤية الحضارية التي تشكل عبر التصور أو الإيديولوجية الحضارية التي تربت هذه المرأة في كنفها، حضارة الإسلام الذي شكل هذا العقل على عينه وخلق هذا الفكر الباني!! فتبدو " فاطمة " عبر هذا الحوار فتاة

---

(١) عذراء جاكرتا: ص٢٢.

مثقفة وناضجة، تعي دورها في الحياة، وتعي في الوقت نفسه صلافة وعجرفة هذا المغرور الفاشي الذي تحاوره، ومن ثم لم تستسلم له، أو تستجيب لإغراءاته، بل نجحت في مقاومته والاستعصاء عليه، وهزيمته أمام أتباعه، واستطاعت عبر محاورتها إياه أن تلقنه درسًا في القيم العليا والفضائل الإسلامية، والأخلاق الإنسانية لن ينساه.. علمته كيف يحترم الآخرين ؟ وكيف لا يسخر من قيمهم وحضا ؟ سيما عندما عرض عليها الزواج.

ـ " يحرم شرعًا الزواج من رجل لا دين له.

ـ " لكني مسلم "

ـ " بشهادة الميلاد فقط..(١) "

إنها " فاطمة " فتاة مهمومة بقضايا الدين الذي تعتنقه، والوطن الذي يؤويها وأسرتها، فهما فوق كل شيء في حياتها، وفي سبيلهما تضحي ولو بحياتها.. ومن ثم، فهي دؤوبة وحريصة على إفهام الآخر وإقناعه، ولم تتهيبه وإن كانت تعرف عجرفته وصلابته في الباطل، وامتهانه لقيم دينها وحضارتها التي تحدب على نقل الإنسان من ضيم الظلم إلى رحابة العدل، ومن الانحراف والهدم، إلى حيث البناء والارتقاء ؛ تحاول أن تقاوم قيم الاستعمار والاضطهاد والتغرير وترويج الأفكار المنحطة والمغلوطة التي يحاول العملاء أن يغرسوها في تربة العقيدة الصحيحة، تدافع بكل خلجة من خلجات نفسها، ولا تستسلم شأن الفتيات التي أفرزتهن أفكار الشيوعية البغيضة، من أمثال زوجته " تانتي "،التي استسلمت له منذ اللحظة الأولى من لقائهما، ومنحته كل شيء دون أن تبالي بقيم أو مبادئ أو أخلاق.. " كان كل شيء بسيطًا سهلاً.. تحابا.. ورقصا، وتنزها في شتى الأماكن..وعبًا من كأس النشوة.. ثم تزوجا.. " (٢).

المرأة في الفكر الشيوعي مادة للإشباع الجنسي !! وجسدها مشاع لكل جائع كما يترجم عنه هذا الهذيان الذي يتدفق على لسان " عيديد ":

---

١) عذراء جاكرتا: ص٢١.

(٢) عذراء جاكرتا: ص ٢٢.

" الدين هو العقبة الوحيدة في طريق تقدمكم.. كانت خطاياي أكثر من أن يغفرها الله.. الحقيقة يا " تانتي " أن اليأس ملأ كياني.. وأنا أكره أن يحكمني أحد.. لقد خلقت لكي أكون حاكمًا.. وخلقت لكي أفعل ما يحلو لي.. "

اقتربت منه " تانتي " وربتت على كتفه في حنان وقالت:

ـ أنت تهذي يا "عيديد ".. كفى كلامًا.. "

... آه يا تانتي هذا عصر الفلسفات الكثيرة.. إن رأسي يدور.. السعيد في هذه الحياة هو الحيوان.. لن يبعثه الله ولن يحاسبه.. تمنيت في أوقات كثيرة أن أكون حيوانًا... ".

ضحكت " تانتي " وقالت وهي تخلع معطفها، وتبدو مفاتنها:

ـ " هون عليك يا " عيديد ".. ما الذي يشقيك ؟ هذا قصرنا ممتلئ بكل شيء.. والخدم يروحون ويجيئون.. ولدينا أموال طائلة.. والحزب بكادراته تحت تصرفك.. ".

ثم غمزت بإحدي عينيها:

ـ " ونساؤه أيضًا.. يقبلن يديك.. "

ضمها إلى صدره في حرارة، وتمتم:

ـ " حياة الحيوانات.. ممتعة.. ممتعة للغاية ". (١)

نعم !! " عيديد " يرى ـ كما ترى الشيوعية ـ أن حياة الحيوانات ممتعة ـ ممتعة للغاية !!. ومن ثم، يحسد الحيوانات على حياتها !! تقتله الرغبة في أن يكون بوهيميا وهو كذلك.. ولا غرابة فالشيوعية لا تختلف في مبادئها كثيرا عما تباشره الحيوانية من أفعال وتصرفات جبلت عليها الأنعام !!..

وهذا مقطع آخر يكشف عن هذه الفلسفة المريضة التي يعتنقها "عيديد"، ويريد أن يصبغ بها فكر الأمة التي يدعي أنه يحمل دينها " الإسلام "، على الرغم من كونه شيوعيا ملحدا يكفر بكل تعاليمه وقيمه وفضائله، وحلاله وحرامه، ويراه العقبة الكئود في سبيل تقدم المجتمعات في هذه البلاد، وحتى يتم له ما يأمل هو وسادته من المستعمرين،

---

(١):عذراء جاكرتا: ص٨٢.

فلابد له أن يعمل على تنظيف عقول شباب هذه الأمة في هذه البلاد من هذا الدين وقيمه ومبادئه التي تحقق للإنسان قيمته ودوره الباني الحضاري في هذه الحياة.

لذا عندما نطالع رؤيته في العلاقة الحميمة التي كفلها الإسلام بين الرجل وزوجته:

حين عاد " عيديد "، كانت زوجته " تانتي " تجلس في انتظاره، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً إلا قليلاً... وهي تتألق في ثوبها الحريري الأخاذ، عيناها تشرقان في سعادة، استقبلته فاتحة ذراعيها وهمست في نعومة:

ـ " لشد ما اشتقت إليك: "

ضمها إليه في قوة وقال:

ـ " هذا رائع.. لقد كانت ملايين الأذرع تتلقفني طوال السفر.. "

ـ " أنا غيرهم.. إن أذرع النساء غير الرجال.. "

قال معابثًا:

ـ " كان في المستقبلين نساء كثيرات ".

ـ " اللعنة عليهن... "

ـ " لماذا ؟؟ نحن مجرد رفاق مخلصين "

ـ " أنا أغار من أية امرأة.. "

ـ " إنني سعيد بحبك.. "

قالت شاردة:

ـ " عيديد ".. عندما تكون الرجل الأول في هذه البلاد، أتعتقد أنني سأكون المرأة الأولى ؟ ".

طبع على خدها قبلة عجلى وقال:

ـ " بالتأكيد يا حبيبتي.. فقد جمعنا الحب والمبدأ على درب واحد من سنين طويلة.. "

ـ " أخاف أن تكون مثل " سوكارنو " الذي ألف كتابًا يدافع فيه عن حقوق المرأة، لكنه في نفس الوقت تزوج عددًا كبيرًا من النساء أذكر منهن "أوتاري " و " أنغيت قار ناسيه " و " فاطمة بنت حسن الدين " و " هارتيني" التي طلقها من زوجها المسيحي، ثم

اليابانية " راتنا ديوي "، ثم " هارياتي " الطالبة الإندونيسية التي فسخ خطبتها من زوجها الضابط في الجيش ثم تزوجها.. صدقني يا " عيديد ".. أنا أكره هذا الرجل.. "

تناول " عيديد " كأسًا شربها دفعة واحدة، وهو يضحك سعيدًا وغمغم في سخرية:

ـ " كان في إمكانه أن يستمتع بمن يشاء منهن دون زواج.. "

ـ " هذا ألعن.. ومع ذلك فإن له خليلات كثيرات من كل أنحاء العالم.. إنه " زير " نساء حقير.. "

ربت " عيديد " على كتفها وقال:

ـ " حذار من هذا الكلام يا حبيبتي.. الرجل صديق حميم لنا.. وما هكذا يكون الكلام عن الأصدقاء " كانت " تانتي " متأججة الشوق، مشغوفة بلقاء زوجها، وكان حماسها يبدو جليًا واضحًا، ومع ذلك فقد أخذ يتثاءب ويتمطى، مما أثار حفيظتها عليه، وقالت غاضبة:

ـ " أتنام ؟؟ "

ـ " أعتقد ذلك "

ـ " ما معنى ذلك ؟ "

ـ " معناه يا حبيبتي أني متعب "

نظرت إليه في غيظ وقالت:

ـ " بل معناه أنك استنفذت طاقتك بين أحضان العاهرات في المدن والقرى.. "

قال وهو يخلع بدلته، ويرتدي ملابسه المنزلية:

ـ " إنها مسألة فسيولوجية بحتة يا " تانتي ".. فعندما يجوع الإنسان لا بد أن يأكل.. في أي مكان.. ولا بد أن يسد جوعه بأي طعام.. المعدة لا ترحم.. والجنس أيضًا مثل ذلك تمامًا. "

قالت وهي تصر على أسنانها في غيظ:

ـ " إذن فأنت تعترف.. "

ـ " لم أعترف بشيء.. ولكني أقول حتى لو حدث ما تزعمين يجب ألا يثير حفيظتك لهذه الدرجة.. "

قالت وسحابة من الأسى تطوف على جبينها:

ـ " إنك تطعنني في أعز ما أملك "

تمتم في ضيق:

ـ " هذا الحديث لا يروق لي "

رمته بنظرة حزينة، فاستطرد:

ـ " أنت المتفردة بقلبي، حتى ولو كان لي كل يوم خليلة.. "

ـ " هذا المنطق الكسيح ينفرني منك.. "

صرخ: " تانتي "

نظرت إليه في تحد:

ـ " ماذا تريد ؟ "

ـ " يجب أن تصمتي.. إن عقلي مشغول بأمور كبار.. إما أن نكون أو لا نكون.. "

وتناول " عيديد " وجبة خفيفة من الطعام وكأسين أو ثلاثة وهو شارد، وقال:

ـ " بالعنف وحده تحسم الأمور.. "

ـ " ماذا تقصد ؟؟ "

ـ " ولا يصح أن نترك للعدو ثغرة ينفذ من خلالها.. "

وذهب إلى دورة المياه ثم عاد يقول:

ـ " طاب مساؤك(١) ".

فـ "عيديد " وزوجته " تانتي " هما مثالان حيان وفاعلان في بناء المنتج الإنساني للفكر الشيوعي سيما في نظرته للمرأة ودورها في الحياة، فالمرأة في نظر "عيديد " ما هي إلا وعاء جنسي يستخدمه الرجل متى احتاج إلى إشباع رغباته ونزواته كما الحيوانات: " إنها مسألة فسيولوجية بحتة يا " تانتي ".. فعندما يجوع الإنسان لا بد أن يأكل.. في أي مكان.. ولا بد أن يسد جوعه بأي طعام.. المعدة لا ترحم.. والجنس أيضًا

---

١) عذراء جاكرتا: ص٨٣، ٨٤.

مثل ذلك تمامًا. !! " تلك هي المرأة في نظر الشيوعية الحمراء التي تـرى المـرأة ككـل ملكية مشاعا لكل مبتغ أو راغب!! لا يكبح جمـاح نزواته كابح من دين، أو قيم أو حتـى أعراف وتقاليد إنسانية، تواضع عليها المجتمع المسلم..

والروائي يوظف أسلوب الحوار بوصفه تقنية إبداعية قادرة على تمييز الشخصيات بعضها من بعض ؛ الحوار يحكي التباين الفكري ؛ الرؤية أو التصور الإيـديولوجي لكـلا الشخصيتين في اللقطة التي اخترناها من الرواية.

الحوار بوصفه الصورة أو الصياغة التعبيرية (التقنية) التي تسهم إلى حد كبير في تشكيل الفضاء القصصي، إن لم يكن أهمها ؛ لأنه يقدم الرؤية الفكرية/ الفنية للقاص عبر الشخوص، وكأنها كائن حي يتحرك /يتصارع / يتعـارك، فـي كـل اتجاهـات الفضـاء القصصي، فيشغل حيزًا واسعًا من عالمه، ومجرياته المتعـددة، سـواء فـي الحـدث أو الأحداث المتفاعلة مع الحدث الرئيس في الرواية، أو الشخصـيات فيمـا بـين بعضـها البعض، حتى بين الشخصية وذاتها الكامنة داخلها، أو المطمورة بين جوانحها، فتعبر عن رغباتها وآمالها وآلامها، فيما يسمى بـ" الفضفضة ".. سيما عنـدما تتـأزم الأحـداث، وتتعقد وتختلط خيوط العمل، فتجد " الحوار "، ذلك الأسلوب الأمثل ؛ لكشـف الأصـوات المختلفة، وتحديد ملامحها، وتعرية الواقع المعاش، سواءً الواقع الخاص داخل العمـل أو الذي يحياه البطل.. سيما، إذا كان العمل الأدبي ــ في مجمله ــ هو التعبير عـن رؤيـة للعالم ؛ عن نمط من الرؤية والإحساس بعالم ملموس من الكائنات والأشياء ؛ عن رؤيـة شاملة للعلاقات الإنسانية، وعلاقات الإنسان بالكون. وهي ــ وإن عبر عنها فرد بعينه ــ رؤية نابعة من الضمير الجماعي، تؤدي بهذا الضمير إلى أن يكون لـه مُثُلُـهُ الخاصـة بالفعل أو بالقوة، ونحو نمو أحد أمرين:

أولهما: إعادة التنظيم الشامل للعلاقات الإنسانية، وعلاقة الإنسان بالكون.

ثانيهما: المحافظة على البنية الاجتماعية القائمة [١].

---

(١) الوعي القائم والوعي الممكن ص ٤٩ بحث منشور ضمن كتاب " البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ــ ترجمة. د / محمد برادة ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ ١٩٨٤م ــ بيروت.

فالحوار ــ من ثم ــ هو الخاصية الأسلوبية القادرة على بث الحياة في الشخصية التي تتحرك وتسكن، وتنام وتصحو ؛ تحيا بتدفق في عالم القصة.. من ثَـمّ، يتعرف المتلقي على ذوات هذه الشخوص (المتحاورة) ويكتشف أبعادهم التي تشكل الهوية النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والعقدية، ويعرف طباعهم، وتحولات أمزجتهم. وإن كانت هذه الشخصيات تعبر في الأصل الذي يصوره على صفحات قصته، فإنه يقدم ــ من خلال هذه الأنماط المختلفة ــ المُشَكَّلة عبر رؤيته وخيالاته ؛ رؤية واضحة عن هدفه من العملية الإبداعية برمتها، عبر هذا الكم الهائل من المقومات الفنية بأشكالها وألوانها المختلفة، يتميز العمل الفني ويثرى بألوان المتعة الراقية، التي يتطلع إليها القارئ. وتستقطبه في الوقت نفسه إلى هذا العالم المدهش الذي يطالعه لأول مرة !!.

فالحوار ــ بوصفه تقنية إبداعية لغوية حيوية ــ هو القادر على تقديم هذه الأنماط الإنسانية المتعددة عبر الفضاء الروائي، وله القدرة كذلك على التمييز الحاد بين نوعيات هذه الأنماط المتداخلة في عالم القصة، وعبر الصراع المحتدم بين شخوصها المختلفة، أو الشخصية وذاتها التي قد تتجرد أو تنفصل عنها، في لحظة ما من لحظات حياتها المتداعية.. سيما، عندما تسكت كل الجوارح، ولا يُمكن الحديث إلا للوجدانات أو العواطف أو الأحاسيس المتدافعة داخل النفس البشرية، " الشخصية القصصية " التي ينبثق عنها الحدث أو يتطلبها وجوده.

الحوار في أبسط مفاهيمه الفنية هو: " الأسلوب المروم في خلق التعددية، عبر تقنية المقابلة والصراع، وأدرمة المواقف في براعة وخفة، ترتفع به إلى درجة الصورة التعبيرية التي تسعى لتطوير الحكي، وتأزيم الموقف الدرامي وتوتره، فيخلق ــ من ثم ــ تطورًا يتقدم بالتشكيل الفني للفضاء الإبداعي لتشكيل القصة.

الحوار بهذه الصفة يصبح هو الأسلوب الأمثل لخلق التعددية اللسانية والفكرية في الوقت نفسه، وذلك عبر تقنية المقابلة والصراع وتعقيد المواقف، حتى تتكشف من خلاله الرؤى المختلفة المتجادلة، عبر تلك الصور التعبيرية للحكي المفرز ؛ لتشكيل الدراما في البناء القصصي.

إذن الحوار هو التقنية ــ القادرة على بث الحياة والصدق، في تشكيل الشخوص المتحاورة، كما أنه (يضفي على المواقف التي يعبر عنها فضلاً عن الحياة والصدق الأهمية والتركيز، كما يقطع السياق الممل، (رتابة السرد)، ويزيد من إحساس القارئ بواقعية القصة ؛ (أحداثها وشخوصها). [١]

فاللغة الحوارية هي التي تضفي الحيوية والحركة والتفاعل، ليس على الأحداث فحسب، وإنما الحيوية والتفاعل والتدفق في الأداء اللغوي (بناء الفضاء الإبداعي) للقصة، هذه الحيوية وتوابعها ــ نتاج الحوار ــ وميض، أو إفراز جمالي إبداعي للقصة، بدونه تبدو القصة وكأنها كائن شاحب، ذابل، متهرئ،لا يقوى على التقاط أنفاسه !! ولذا يتطلب الأمر استعدادًا خاصًا لدى المبدع الذي يتصدى لعملية الإبداع فعليه من العبء والمسئولية اللغوية، ما لو نجح في القيام بهما وتوظيفهما لكتبت لإبداعه الحياة، ولو أخفق أو لم يع توظيفهما التوظيف المناسب، لانهار البناء من أساسه.

والحوار بوصفه تقنية تعبيرية فنية يقدم عدة قيم أو وظائف فنية لعملية الإبداع برمتها يمكننا أن نذكر منها:

١ــ أنه الوسيلة الفنية القادرة على إقناع المتلقي بأفكار الأديب، أو إطروحاته الفكرية، عبر إبداعه الفني.. فإذا جاءت هذه الأفكار أو القيم والمبادئ التي يريد الأديب طرحها على المتلقين بعيدًا عن الدعائية الفجة، أو الوعظ المباشر ــ خلال الحوار ــ فإنها تصل إليهم دون عناء منه، ونجد لديهم قبولاً ربما لا يتوفر لها لو طرحت بطريق آخر مثل الإخبار أو الوصف، وغيره من تقنيات السرد المتعددة.

٢ــ قدرة الحوار على قتل رتابة السرد والوصف، عبر تقنية (الإخبار / الصراع المباشر بين الطرفين.. [٢]، وبث الحركة في المشاهد القصصية... فكلما أحس القارئ بالملل، أو بالسأم من تتابع السرد وامتداده، قطع هذا الملل، هذا الحوار الساخن، الذي يثير النفس

---

(١) القصة في الأدب العربي الحديث ص:٥٢ د. محمد يوسف نجم ــ دار الثقافة ــ ثانية ــ ١٩٦٦ ــ بيروت

(٢) ميكانيزمات الحوار في عملية القص ــ للأستاذ حسن كاوز من مقاله بمجلة الحرس الوطني (السعودية) عدد (١١٠).

ويجذبها نحوه... والأمر ليس كما يظن البعض، أنه كلما امتد اللجوء إلى الحوار في عملية الإبداع اكتسبت القصة حيوية واقتدارًا على توصيل ما بها من أفكار، أو حققت هدفًا معينًا من إبداعها، قد لا يمكن للسرد أو أي تقنية أسلوبية أخرى أن تؤديه، فليس الأمر كذلك وإنما لكل صورة من صور الإبداع وصياغاته المختلفة، مقومات فنية وإبداعية لا يستطيع أن تقوم إحداها مقام الأخرى في عملية البناء، فلكل مرحلة مفردات معينة وطاقات إبداعية خاصة، لا يسد غيرها مسدها. ومن ثم، فالحوار في القصة، لا يستطيع السرد أن يقوم مقامه أو يؤدي وظائفه، فلكل منهما طاقاته وحيويته في التشكيل الإبداعي...فالحوار هو الذي يمهد للمبدع عملية الانتقال من حدث إلى حدث، أو من مكان إلى مكان، دون الشعور بهذه التحولات، أو الانتقالات، لما يتمتع به ــ إذا ما وعى الكاتب توظيفه، وأضفى على لغته الجدة ــ من (الحركة التي يبثها في الأحداث، والحياة التي يبعثها في المَشاهد... إنه يزيد الأحداث تقدما إلى الأمام... ويعمق معرفتنا بالشخصيات في حركتها النفسية [1] دون السقوط في الترهل أو الحشو الذي يورث الملل، الذي بدوره يطفئ شعلة الإبداع، بخلاف السرد، فلو صنع هذه الوظيفة، لأحسسنا بالفجوات المتعددة، بين تسلسل الأحداث أو اختلالها. سيما في فن إبداع الرواية، التي تتسع لأحداث متعددة، وأشخاص متعددين... وإن لم يع المبدع طاقات وأساليب الإبداع المميزة ووظفها في مكانها المناسب لارتكب جرما قد يحكم على عمله الإبداعي بالموت قبل أن يرى الحياة.

٣ــ يحاول الحوار بنوعيه، أن يقدم صورة حية، للشخصية في إطارها الاجتماعي والثقافي والفكري، فيمنحنا فكرة متكاملة عن الفروق النفسية والثقافية والفكرية،بين الأنماط البشرية المختلفة فكل منهما يعبر بقدر طاقته، وفي مستوى تفكيره وثقافته ووضعه الاجتماعي، فليس من المعقول أن تعبر جميع الشخصيات بلغة واحدة وفكر واحد، وإلا انتفت واقعية الفن عن هذه القصة، وتعلو نبرة المؤلف.. ومن ثم، لا بد للقاص أن يعي إمكانات شخوصه ومستوياتها الاجتماعية والفكرية والثقافية... " فكلما عبر كل شخص بلغته، حسب مستواه ووضعه فيها، كان ذلك أمثل... لأنه ينسينا المؤلف،

---

(١) عضوية الحوار في العمل القصصي ص ٨ مقال د / عبد اللطيف الحديدي ــ حولية كلية اللغة العربية عدد (١١٥) ج ٢ ــ ١٩٩٦م ــ المنصورة.

ويشعرنا بأن الحياة تجري طبيعية أمامنا، دون أن يعترضها تنسيقه المفتعل "[١] فإذا لم ينجح القاص في تشكيل لغة شخوصه، وتلاؤمها مع وجداناتهم وتفكيرهم، والتعبير عن عواطفهم، فإنه يتجاوز هذه الواقعية الإبداعية التي ينشدها في الفن، ويصنف عمله هذا في إطار أبعد ما يكون عن الفن وإبداعاته المتعددة !!... ولذا تجدنا نعيب على المبدع عندما يستنطق شخوصه بلغة قد لا تتناسب مع إمكاناتهم الثقافية أو الفكرية أو الاجتماعية، وليس هذا معناه، أن يسقط المبدع فيما يدعيه بعض مبدعينا ونقادنا في هوة اللغة الدارجة، أو اللغة الثالثة، أو العامية [٢] أو اللهجات المختلفة لكل قطر، بل لنقل اللهجات المتعددة للقطر الواحد ؛ فلهجة أهل " القاهرة " في " مصر " تختلف عن لهجة جنوب الوادي (الصعيد)، وعنهما معا تختلف لهجة وسطه، كما تختلف لهجة هؤلاء وأولئك عن لهجة سكان الشمال من أبناء (الدلتا)، وكذلك وسطها، وشرقها، وغربها، في القطر نفسه.. ليس المراد أن يجري الحوار بهذه اللغة الباهتة، التي تخنق العمل الإبداعي وتحصره في مجموعة من المتلقين دون غيرهم، ففضلاً عن هذا، فإن هذه اللغة تخنق الإبداع الأدبي، وتقتل فيه جدته ونضارته !! فطراوة اللغة ونضارتها تأتي من استنفار طاقاتها الإبداعية، وروعتها تكمن في تعددية هذه الطاقات وتنوعها، ولن يتأتي للغة ما، كل هذه الحيوية والجمال، إلا اللغة الأدبية الفصيحة، التي باستطاعتها تقديم صور متعددة، للإفرازات العاطفية المختلفة والأفكار المتباينة... فهي على الرغم من أنها لغة الخاصة، إلا أن لديها من الإمكانات والطاقات ما يمكنها أن تعبر عن العواطف والمشاعر والأحاسيس مهما اختلفت أو تنوعت، كما باستطاعتها كذلك أن تبوح بأسرارها لكل شرائح المجتمع بأنماطه المختلفة، في الفكر والثقافة والتعليم. والقرآن الكريم، وهو المثال الأعلى في الجمال والجلال، والبلاغة والجزالة، فإذا ما استمع إليه العالم أو الجاهل أو حتى أصحاب الثقافة المتواضعة استطاعوا فهم معانيه كُلٌّ بقدر طاقته وإمكاناته.

فالأديب الحقيقي هو الذي يراعي تلك الفروق النفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية لشخوصه في إبداعه، فلا بد أن تتفاوت هذه اللغة الأدبية على ألسنة المتحاورين، ولا يمكن أن نقبل من الأديب لغة يستوي في أدائها العالم والجاهل والمثقف

---

(١) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه ص: ٨٠ سيد قطب ــ دار الشروق ــ ثالثة ــ د. ت ــ مصر.

(٢) كالأدباء: محمد حسين هيكل، لويس عوض، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس وغيرهم ممن اتخذوا هذه اللغات أداة لإبداع قصصهم.

وعديم الثقافة، وتختلف كذلك لغة المفكر عن لغة عديم الثقافة، وكذا لغة القانوني عن لغة التاجر... وهكذا، فلكل شريحة من هذه الشرائح في المجتمع مفرداتها الخاصة، لها لغتها الخاصة، والإطار الذي تتحرك فيه.. ومن ثم، فلا بد أن تكون لغة ملائمة للشخصية التي تتحاور بها... " والفنان الحقيقي المبدع هو الذي يثير في الأداة التي يعمل بها ــ اللغة ــ طاقاتها الخالقة، ويظل على هذا النحو بكل ما وهبه الله من اقتدار، حتى تتم له بنية التشكيل، وبتمامها يستطيع بناء الموقف، ولا يمكن الفصل بين البنيتين، فمن جَدْلِهمَا تنشأ وحدة العمل الفني[١].

فـ"مستوياتية اللغة لا تعني هُزاليتها، وتباعد بنائها، واختلاف نسجها، فإذا كأنها لغات مختلفة، كتبها كُتاب مختلفون، لا لغة واحدة، كتبها كاتب واحد.. فالاختلاف في المستوى اللغوي واقع وارد، ولكن لا أحد يشعر به، أو يكاد يشعر به... فكأنه عسل الشهد، مزج بالزبد الطري.. ذَوْقَانِ في ذوق واحد، أو قل: أذواقٌ تشكِّلُ ذوقًا واحدًا... فاللغة ــ كما قلنا قبل ذلك ــ انسجام وتناغم ونظام واللغة الإبداعية نسج بديع يبهر ويسحر، ولعل الأديب الكبير الذي يعرف كيف يتلطف على لغته حتى يجعلها تتوزع على مستويات، ولكن دون أن يُشعر قارئه بالاختلال المستوياتي، في نسج لغته، وذلك بالإبقاء عليها في مستوى فني عام موحد على نحو ما، كالبنية الكبيرة التي تجري في فلكها بُنى مختلفة دون أن تتفكك بنية منها، فتنعزل عن صنواتها، بل كل بنية تظل مرتبطة ببعضها، ومفضية إلى أختها، بحيث كل بنية تستأثر بخصوصية دون أن تفقد علاقتها العامة بباقي البُنَى، وذلك من أجل تجسيد نظام لغوي، أثناء ذلك، شديد التماسك.. فالسحر اللغوي إذا غاب عن العمل القصصي غاب عنه كل شيء: غاب الفن، وغاب الأدب معًا...." [٢]

فالحوار، هو الذي باستطاعته أن يحدد الأبعاد أو المستويات المختلفة للغة والأنماط المختلفة من شخوص الرواية، دون السقوط في هوة اللغة الباردة أو الجامدة... فاللغة هي لغة الأدب والإبداع، وهي في الوقت نفسه لغة الأديب المبدع. فمن ثم،لا بد أن تكون

---

(١) المنولوج بين الدراما والشعر ص: ٨ بتصرف من مقدمة الدكتور عبد المنعم تليمة ــ أسامة فرحات ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ د. ت ــ مصر.

(٢) نظرية الرواية، مواطن مختلفة من المقالة الرابعة ص: ١٢٨: ١٢٩ بتصرف، عبد الملك مرتاض ــ عالم المعرفة (٢٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت.

لغة على هذا المستوى الإبداعي الرفيع، مهما اختلفت الأنماط في شرائحها المختلفة، أو تعودت الألسنة داخل العمل الأدبي..فلغة الإبداع الأدبي لغة مشرقة " حُبْلى " بالقيم والطاقات الإبداعية المتعددة.

٤ ــ يعمل الحوار بنوعيه ــ على تقديم الصورة الحية للشخصية القصصية، فينقل إلينا أحاسيسها وعواطفها ومشاعرها وخواطرها وآمالها وآلامها.. يقدم الشخصية، وهي تتحرك وتتفاعل وتتصارع.. وهو ما يمكن تسميته: بـ " أدرمة الشخصية " فهو الذي يمكنه تقديمها في مراحلها المختلفة، دون تدخل مباشر من المؤلف قد يضر بتأليفه هذا، فيقدم أبعادها المختلفة وحركتها داخل كل بعد، كالبعد النفسي والثقافي والفكري والاجتماعي والعاطفي،وتحديد علاقاتها بالشخصيات الأخرى، في هذا الكون الإبداعي الجديد.

فالحوار، وليس غيره، من تقنيات الإبداع القصصي الذي يعد من أهم الوسائل أو الوسائط التي يعتمد عليها الكاتب أو القاص في بث الحياة والصدق في شخصياته... فهو الذي يعبر به الكاتب عما يدور داخل هذه الشخصيات متوازيا مع أفكاره وخيالاته، لكي يقدم للمتلقي رؤية واضحة، تنم عن هدفه من العملية الإبداعية، من خلال الطاقات الفنية التي تميز العمل الفني وتثريه بألوان المتعة الراقية التي يتطلع إليها المتلقي... فإذا كان الحوار في القصة ــ كما قلنا ــ هو: الأسلوب المروم في خلق التعددية عبر تقنية المقابلة والصراع وأدرمة المواقف، وأنه يُوظَّف لكشف الأصوات في القصة بوصفه صورة تعبيرية لتطوير الحكي، وتأزيم الموقف الدرامي... إذا كان الأمر كذلك ؛ فمن خلال هذا التقابل، وهذه التعددية التي يخلقها الحوار تتضح معالم الشخصية الإبداعية بملامحها المختلفة، وكذلك يتمكن الأديب من بث الحياة والصدق، في هذه الكيانات الورقية، التي تشغل أماكنها وأدوارها، في هذا العالم الجديد.

فالحوار هو الذي يخلق الشخصية ــ إن جاز التعبير ــ ويقدمها في الإطار المناسب لحركتها وطاقاتها وإمكاناتها، فتقوم بالدور المنوط بها في هذا العالم، الذي ينتجه أو يبدعه القصصي الماهر.. فيتحرك بالشخصية نحو الاكتمال، من خلال مراحل التجربة التي تمر بها، كلما أوغلت في العمل الفني، فتكون لكل كلمة رُصِفَت في الحوار دورها في تشكيل الأبعاد المختلفة للشخصية، على المستويين الفكري والفني..

ومن هنا، يتحتم على المبدع الوعي باختيار لغته، والوعي كذلك بإمكاناتها وطاقاتها الإبداعية، وتوظيفها التوظيف الذي يستنطق كل هذه الطاقات الروحية أو الإمكانات النفسية والفنية، بحيث تكون ــ لغة الحوار ــ دقيقة ووافية بالغرض وغنية بالإيحاء، فاللغة هي الجسر الذي يصل بين التجربة وحس ووجدان المتلقي.. فتكون عبارته حُبْلى بالقيم الجمالية القادرة على الإسهام في تطوير الحدث، وحركة الشخصيات.سيما في القصة القصيرة، فلغتها تقترب من لغة الشعر في الكثافة والاختزال، " إن القصة القصيرة تسمح بإمكانات لا تسمح بها الرواية، من حيث قدرتها على التركيز والتكثيف، وعن طريق درامية الموقف، يبرز عالم سريع ونشط، كشريط سينمائي لجميع الأزمنة / ماضيها وحاضرها ومستقبلها / ولتصبح ركيزة زمنية يتكئ عليها الفنان، كذلك تستطيع القصة القصيرة بخروجها على النمطية أن تتملك اللحظة التي انبثقت عنها وتسبح في سيولة زمنية.." (١).

وشخصية " فاطمة " التي ترمز للشاطئ الآخر من المواجهة أو الصراع الحضاري؛ الرؤية الإسلامية، لا تختلف في بنيتها الفنية المنبثقة عن التصور الإسلامي عن غيرها من الشخوص المنبثقة عن الإيديولوجيات الوضعية المتصادمة مع رؤية الإسلام لأنموذج المرأة التي صنعها التصور الإسلامي لإبداع المرأة في العمل الأدبي، فهي شخصية ككل النساء، تتصرف كامرأة تلتقي فيها كل المتناقضات، كالقوة والضعف، والسلبية والإيجابية، والتفاؤل والتشاؤم،والإقدام والتخاذل، شأن كل البشر، ولذا نجدها وعلى الرغم من البطولة التي تبديها هذه الفتاة " فاطمة " إلا أن ضعفها النفسي يغلبها، ويضفي عليها شيئًا من الواقعية التي نريدها للمرأة المسلمة، فالمرأة المسلمة ليست قديسة كما أنها ليست شيطانًا، لكنها بشر يصيب ويخطئ، يسمو ويسقط شأنها شأن كل البشر في الواقع الذي نطمح إليه، ونريد في واقع الحياة، وسنطرحه عبر هذه الإطلالة الرؤية على الواقعية التي تنهل مقوماتها من التصور الإسلامي أو العقيدة الإسلامية..

والأديب الحقيقي لا يمكن أن ينفصل عن واقعه مهما كان مؤلمًا، وهذا ما حاولت أن تفهمنا إياه فيما قالته في إحدى مشاركاتها " الأدب مرآة المجتمع، والأديب فنان يستخلص

---

(١) قراءة في أدب نجيب محفوظ ص: ٥٨ ــ د. رجاء عيد ــ منشاة المعارف ــ د. ت ــ الإسكندرية.

الجمال من محيطه وبيئته، ويعرضه ؛ ليعكس صورة مكثفة لكل العناصر الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة بمجتمعه، وليس المقصود بالجمال هنا: تزييف الواقع، أو تصويره بلون وردي، ولكن الإبداع الحقيقي هو: تحويل الحقيقة بكل مآسيها وكوارثها وقبحها إلى عمل فني راق وخالد، يؤثر في وجدان القارئ، ويستثير خياله، ويشترك معه في محاولة العثور على أجوبة للأسئلة المعلقة التي تطرحها الحياة.

وهذا ما يؤكده حتى دعاة الواقعية الاشتراكية، التي تحتم على الكاتب عندما يصور الشر لابد له " أن يبث في تصويره (...) دواعي الأمل في التخلص منه، فتحًا لمنافذ التفاؤل حتى في أحلك المواقف [١]". ومن ثم، يصبح الأدب ذا رسالة اجتماعية تسهم في النهوض بالمجتمع، وتدفعه نحو آفاق الازدهار، بحيث يلتحم الأديب بعصره الذي يعيش فيه، ويشارك في معالجة قضاياه وهمومه. " فالوعي الحسي للكاتب، يحتم عليه اشتراكه في مسائل قومه، ومسائل العالم من حوله، كي يصور عالمه الذي يحيا فيه، قاصدًا إلى تصويره وخلقه خلقًا جديدًا [٢] وإذا كانت هذه رؤية الواقعيين الاشتراكيين، فإن مدرسة الإبداع الإسلامي، والتي تنتمي إليها الكاتبة تكشف عن رؤية بنائية حضارية تسمو بإنسانية الإنسان نحو الأفق المنفتح على العالم، والمنبثق عن تصور يستخدم " أقصى طاقات أدوات التعبير وتطويرها عن رؤية الفنان لواقعه " [٣] الذي يطرح عليه من ذاته ورؤيته، ما يحيله حيًا مَوَّارًا نابضًا.. فالفن في أبسط صوره مثير للقلق، باعث للألم، لكن بصورة مخالفة للحياة، فالأديب (لا ينسخ ــ كما يقول الروائي " سومرست موم " ــ نسخًا من الحياة نفسها، لكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه، يضع ملامح استرعت انتباهه هنا، ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصيته، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل يعنيه هو أن يخلق وحدة منسجمة محتملة الوجود، تتفق وأغراضه الخاصة) [٤]، وذلك لأن الفن والحياة شيئان متباينان، والوجود في أحدهما يختلف عن الوجود في الآخر، فالحياة تفرض علينا وجودًا مستمرًا، بينما الشخصية في القصة، لا تظهر إلا في

---

(١) الأدب المقارن ص ٣٨١ د/ محمد غنيمي هلال ــ دار نهضة مصر ــ ثالثة ــ د ت ــ القاهرة.

(٢) الأدب المقارن ــ ص: ٣٨١.

(٣) الروائي والأرض ص ٣٣ د.عبد المحسن طه بدر ــ دار المعارف ــ ثالثة ــ ١٩٨٣ ــ مصر.

(٤) فن القصة ص ٩٣ ــ د / محمد يوسف نجم ــ دار الثقافة ــ بيروت.

الأوقات التي ينتظر منها أن تقوم بعمل ما، بينما نحن في حياتنا الواقعية نعيش أيامًا بل وسنين دون أن نعمل عملاً مهما يلفت النظر...) [١]... من ثم يكون " الأدب هو الجزء الأفضل من الحياة، شريطة أن تكون الحياة هي الجزء الأفضل من الأدب " [٢].

فالواقع، (الحياة) يعد مصدرًا رئيسًا ومهمًا من بين مصادر الإبداع الأدبي عامة، والروائي خاصة، بشرط أن يسلط الكاتب قوة الخيال الفني في خلق هذه الشخصيات، وإلا أضحت شخصيات ممسوخة مما هو حي في الواقع، فتصبح مكررة، ومملة...، فالأديب الروائي " ترجنيف " اعترف أنه: لا يستطيع أن يخلق شخصية من الشخصيات إلا إذا سلط قوة خياله على شخصية حية من الشخصيات التي تتحرك من حوله) [٣]، والأديب الحقيقي ابن بيئته (واقعه) كما هو في الوقت نفسه ابن لذاته، ينهل في إبداعه من الواقع الذي يحياه، ويضفي عليه من إحساسه ومشاعره الذاتية ما يحيل هذا الواقع شيئًا جديدًا يختلف عن هذا الواقع، وإن استمد منه صوره ومقوماته.

وكاتبنا " نجيب الكيلاني " لم يهمل واقعه يومًا ما،: " لم يكن ما كتبت بعيدًا عن الواقع، واقع الحياة المر، ومتاهاتها المظلمة وأسوارها العاتية، وتناقضاتها الرهيبة، كنت حريصًا على أن أتجول ــ وأنا أكتب ــ في حواري القرية وحقولها وعذاباتها، أتملى ملامح الناس، وأستقرئ هواجسهم الداخلية، وأبعث الحياة في حقوقهم الميتة المدفونة في قاع الجهل والنسيان والقهر " [٤]، طارحًا موقفه من هذه الهموم، ومحاولاً تشخيصها لتقديم العلاج الناجع لها، المُسْتَلْهم من التصور الإيماني، الذي يبعث الأمل، ويحمل على الخير، مهما كان الظلام مُدْلهمًا، والظلم قاسيًا، إلا أنه يهجع إلى ظلال الإيمان الوارفة، ينعم بظلها، ويحتمي بما تتيحه له من نبع ورخاوة، تطمئن نفسه، وتثري روحه، وتنعش ذاته..

---

(١) السابق ص: ٩٣.

(٢) الواقعية ص ١٠٥ ــ د / ديمين كرنت ترجمة ــ عبد الواحد لؤلؤة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ١٩٨٣ ــ بيروت.

(٣) السابق: ص ٩٠.

(٤) رحلتي مع الأدب الإسلامي: ص: ٢٨ ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٨٥م. بيروت.

فالواقع يمنح الأديب أو الروائي مساحة لا بأس بها من الاختيار والانتخاب، وتقديم شخصيات ينعكس على صفحاتها تصور الكاتب ورؤيته لهذا الواقع الذي يحياه بين أفراد مجتمعه.

فالواقعية التي ينشدها الروائي، ونحن بدورنا نلمسها في إبداعه، واقعية معجونة بالأمل، ومرارتها محلاة بعبير الحب، والتناغم الذي يصنع ــ إذا جاز التعبير ــ حالة من التواصل والتماهي في هذا الواقع... تنطلق من رؤية إنسانية منبعها الإسلام، ذلك الدين الذي يحفظ للإنسان توازنه أمام نزعات النفس وينتشله من السقوط واللهاث وراء مغريات الحياة، لأن العقيدة الإسلامية "طريقة حياة، لا طريقة فكر ودراسة وكفى، لكنها حاجة النفس كما يقول العقاد [١] ــ يرحمه الله ــ: " والإسلام عندما يقيم علاقاته بين البشر: الإنسان بالإنسان، والإنسان بالكون، تقوم هذه العلاقات على أسس حضارية، تجيش بالحب، حين يجيش غيرها بالكراهية، وتلتقي على البناء، حين يلتقي غيرها على الهدم، وتتوافق مع الفطرة، حين لا يتوافق غيرها إلا مع الأهواء [٢] ".

فوظيفة الفن ــ كما يطرحها الأستاذ الدكتور / عبد المحسن طه بدر[٣] ــ " لا تخرج عن كونها عملية الكشف بأفضل الوسائل الممكنة، وباستخدام أقصى أدوات التعبير عن رؤية الفنان ".

فالواقعية في رؤية الإسلام، ليست هي الواقعية السوداء التي تطرحها المذهبيات المتصادمة مع رؤية الإسلام والتي تدعو للانغماس في الواقع المادي حتى القاع، فيصفون التجربة كما هي واقعة في الخارج، حتى ولو كان هذا الخارج مزريًا كما نرى من واقع التصور الذي يضبط سلوك " عيديد "!! ونسوا أن الواقعية الحقيقية لا تخرج عن كونها " فلسفة خاصة في فهم الحياة والأحياء ــ كما يقول الأديب الإسلامي الدكتور

---

(١) نقلاً عن: في الغزوة الفكري ــ ص ٦١ للدكتور / أحمد السايح، كتاب " الأمة " عدد (٣٨) ــ قطر.. والكلام للأستاذ / العقاد، ولم يثبت الدكتور السايح مرجعه.

(٢) في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية ص ٣٨، ٣٩ للدكتور / محمد أحمد العزب ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ ١٩٨٣ ــ القاهرة.

(٣) الروائي والأرض: ص ٣٣ ــ دار المعارف ــ ثالثة ــ مصر.

نجيب الكيلاني [١] ــ والرؤية الإسلامية تضفي عليها شيئًا من مقوماتها ومعطياتها ؛ لتصبح واقعًا ملائمًا للمجتمعات التي تحتمي بالعقيدة وتؤمن بها، حتى يبدو انفعال العقيدة بالواقع انفعالاً حقيقيًا، ومن ثم، يصبح الأدب " في التصور الإسلامي: تعبير فني جميل ومؤثر... نابع من ذات مؤمنة.. مترجم عن الكون والحياة والإنسان.. وفق الأسس العقدية للمسلم.. وباعث للمتعة والمنفعة.. ومحرك للوجدان والفكر.. ومحفز لاتخاذ موقف والقيام بنشاط ما "... " فيبدو الفن بهذا الحضور، وكأنه جزء من الدين، أو نبض من نبضاته، ومعبر عن روحه، من أجل سعادة حقيقية خالدة وممتدة، سيما إذا كان الدين لم يأت إلا لتنظيم حياة البشر، وإقامتها على أصول ثابتة واقعية ومنتظمة، تحمي ذلك الكيان، وتفتح الطريق لنموه المستمر، وتخلق فيه الحوافز البناءة، وتمده بالأمل والشوق إلى ارتياد المجهول [٢]، والواقع بهذا المفهوم يؤكده الإسلام ويثريه ويحفز عليه، فإنه لم يكن واقعًا مفروضًا من قبل صفوة ممتازة، أو طبقة كادحة، أو واقعًا ماديًا محسوسًا قصير النظر، إنما هو الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع السماوي بحقيقته العليا، وروحانيته وإعجازه وقدره ؛ (إنه الواقع الإسلامي الشامل لكل عناصر الواقع القائم واحتمالاته غير المنظورة أو المدركة) [٣] النابع من الفطرة الإسلامية الشاملة، والمنظمة لهذا الكون بما فيه، ومن فيه، في جميع أطواره مهما اختلف الزمان والمكان.

وليس معنى هذا أن تكون الشخصيات المبدعة في صور مثالية ملائكية مطلقًا، فهذا ما لا يمكن تحقيقه على الأرض. فالشخصية الإسلامية نمط بشري يتصرف تصرفات البشر، ولكن هناك ما يحميه وينتشله من السقوط دائمًا، فالعقيدة هي (الأمر الذي تثق به النفوس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقينًا عند صاحبه، ولا يمازجه فيه شك، ولا يخالطه ريب، بحيث لا يستغني عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم بها بمعتصم، واستقر فيها على قرار) [٤]، سيما إذا عرفنا أن الإسلام عندما

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية: ص ١١١ ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥م ــ بيروت.

(٢) حول الدين والدولة: ص ٥٤ نجيب الكيلاني ــ دار النفائس ــ ثالثة ــ د ت ــ بيروت.

(٣) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد: ص ٣٣ ــ بتصرف د / أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥م ــ جدة.

(٤) في الغزو الفكري: ص ٦١ ــ د / أحمد عبد الرحيم السايح ــ كتاب الأمة ــ عدد ٣٨ ــ قطر.

يقيم علاقاته بين البشر، الإنسان بالإنسان، والإنسان بالكون، والإنسان بالتاريخ، " تقوم هذه العلاقات على أسس حضارية حميمة، تجيش بالحب حين يجيش غيرها بالكراهية وتلتقي على البناء حين يلتقي غيرها على الهدم، وتتوافق مع الفطرة حين لا يتوافق غيرها إلا مع الأهواء " (١).

والواقع من خلال التصور الإسلامي، ليس ما تعنيه تصورات وضعية كالماركسية، والرأسمالية، إنما هذا الواقع ينطلق من العقيدة الإسلامية التي هي في مضمونها: " طريقة حياة، لا طريقة فكر أو دراسة وكفى، لكنها حاجة النفس)(٢) في محياها وحتى بعد مماتها، وكل ما بينهما من مسافات شاسعة ممتلئة بهذه الاحتياجات المتباينة.

فهذه العقيدة تحمي من ينضوي تحتها من الذوبان في خِضَم الحياة، كما تحفظ توازنه أمام حاجيات النفس، ونوازعها، وتحمله حملاً على السمو والتفرد، فلا علاقاته وصلاته الاجتماعية، سواء كان ذلك بين الناس والأفراد، أو الجماعات، أو الأمم، في محيط الأسرة والوطن والعالم كله كي يسعد وينهض، ويبني ويعمر، يستمد كل هذه المقومات من ديانته الربانية (لأن الإنسان بدون هذه العقيدة، يصبح كالريشة المعلقة في مهب الرياح، تحوله يميناً ويساراً، كيفما تشاء، فليست له جذور تحميه من اقتلاع نفسه من المجتمع، فسرعان ما تجتث من فوق الأرض... أما العقيدة، فتقف سداً منيعاً بين الشخصية وبين هذه الرياح الخبيثة، أو المذاهب المقتحمة، فتعطي عمقاً للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقراراً وثباتاً للإنسان في الحياة) (٣).

من ثم تضحي الشخصية المستدعاة من هذا الواقع، المستضيء بالتصور العقدي الرباني، كشجرة طيبة أصلها ثابت في الأرض، وسامقة فروعها بما تحمله من خير حتى عنان السماء، فتطلق يدها في المجتمع فتؤتي أكلها الطيبة كل حين، وفي كل مكان بإذن ربها... فتتأبى على الضياع، أو الانهيار، أو السقوط في المجتمع.

---

(١) في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية: ص ٣٨، ٣٩ ــ د / محمد أحمد الغزب ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ ١٩٨٣م ــ القاهرة.

(٢) نقلاً عن الغزو الفكري ص ٦١، والكلام للأستاذ عباس العقاد لم يثبت مرجعه.

(٣) في الغزو الفكري: ص ٦٢ ــ د / السايح.

فالأديب دائمًا ما يحث المتلقي على التعلم من أخطاء الآخرين، ويحفزه على التشبث بالحسن الجميل، والاستعلاء على مشكلات الحياة، ونوائبها التي قد تجرف الخائرين، أصحاب العزائم المهيضة... فالإنسان في الإسلام نمط بشري يتصرف مثلما يتصرف البشر، لكن هناك ما يحميه من السقوط، فالعقيدة التي يؤمن بها هي التي تحميه من الذوبان في خضم الحياة، وتحفظ توازنه أمام حاجيات النفس ونوازعها، وتحمله حملاً على السمو والتفرد في صلاته وعلاقاته الاجتماعية.

فالضعف الإنساني طبيعة بشرية، يستوي فيها المسلم وغيره ممن يدينون بالأيديولوجيات أو المذاهب الأخرى، فمثلاً عندما نجد منظمة " قيرواني " بقيادة " عيديد " تثير رياح الضغينة بنار الشائعات حول " فاطمة "، ويتهمونها في شرفها، وينالون من نقاء فطرتها، وبراءة نفسها يصنعون حولها ما يمكن تسميته بـ " حديث إفك جديد " كما قال والدها " شيخ حاجي محمد إدريس " في هذا المقطع الذي نال منه تدخل (الراوية) وكبح جماح تحليقه في آفاق الإبداع حيث يقول [1]:

" وحاجي محمد إدريس يشعر بضيق من نوع آخر مصدره ابنته " فاطمة " الطالبة بكلية الآداب، لقد أتت بالأمس من الكلية محتقنة العينين، شاحبة الوجه، وما أن دخلت المنزل حتى انفجرت باكية، ثم تردد في تعاسة: " أنا مظلومة.. مظلومة يا أبتي " !!.

وجاءت أمها وأخوتها وأخواتها، الجميع في حيرة من أمرها ثم جلست "فاطمة" تروي لهم، كيف أن الجامعة أصبحت بالنسبة لها جحيمًا لا يطاق، فألسنة السوء تنهش عرضها وتغرقها في (أتون) الشائعات، والملصقات الصغيرة تملأ المدرج عنها، وترميها بالفجور وسوء الأخلاق، والمغامرات الدنيئة، والأعين تلاحقها أينما ذهبت، والتعليقات الماجنة تقابلها في كل مكان، وضحكات الهزء والسخرية لا تجعلها تفهم كلمة واحدة من الدرس، أو تستقر بضع دقائق في المكتبة العامة، بل إن بعضهم قد شبك ورقة صغيرة في مؤخرة شالها الأبيض مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: " أنا أحبك "، وبعض الغوغائيين أخذوا يصفقون لها وهي تدلف إلى قاعة المحاضرات، وبعد أن انتهت من حديثها، قال أبوها في أسف:

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٣١: ٣٢.

ـ " دعيهم يموتوا بغيظهم "

ـ " أكاد أجن يا أبتي.. "

ـ " في كل عصر يا فتاتي حديث إفك جديد.. "

ثم أخذ يشرح لها قصة حديث الإفك التي تناولها القرآن الكريم عن السيدة عائشة زوج الرسول الكريم " صلى الله عليه وسلم "، وكيف أن الحاقدين والمنافقين حاولوا تشويه سمعتها وسمعة النبي الأعظم، ولكن الحقيقة ظهرت للعيان، وخسر هنالك المبطلون..

همست فاطمة في حزن بالغ:

ـ " أنا ضعيفة.. "

ـ" أنت قوية بالله.. "

ـ " والمبادئ الفاضلة تضمحل.. تموت.. "

ـ " لن تموت أبدًا يا فاطمة.. لأنها من صنع الله.. "

ـ " الغوغائيون يا ابنتي أصبحوا يسيطرون على قطاع كبير من عقول غالبية المجتمع..".

ـ " وهذا وهم يا ابنتي.. إنها مظاهر كاذبة.. تذوب وتفنى عندما تسطع عليها شمس الحقيقة، اسألي أباك.. أنا أعرف.. الكذب والنفاق لا يقيمان دولة، ولا يحميان سلطة.. يجب أن تؤمني بذلك.. ".

أرأيت كيف يتفجر ضعف المرأة ويثير غباره في كل الاتجاهات، تملكها الحنق وتمكن منها الغضب على هذا النحو الذي رأينا، وهنا يتعهدها والدها الشيخ المسن، الداعية المجرب بالنصح والإرشاد، ويحاول إغراءها بالصمود ويثري فيها قيم الخير، ويبذر في تربة طبيعتها بذور القوة والشجاعة، وأن ما حدث لها ما هو إلا سحابة صيف أو دخان أبيض لا ينبعث عن نار حقيقية، ودليل إفلاس وضعف وخور، من الخصم الذي يعرف عنه هذه الضلالات والمظاهر الفاسدة، والأفكار البالية التي سرعان ما تذروها الرياح، وتنسفها قيم الخير والعدل، والصدق والشجاعة والإيمان ؛ الإيمان بالله قوة قاهرة

للظلم مهما استشرى أو استفحل، وهذا ما حير "فاطمة" !!، وجعل فكرها يتأرجح بين أفكار والدها، والواقع الذي يغمر المكان في زيفه، وامتلاك ناصية الحياة في كل شيء..

وهنا يبرز دور الأب الشيخ العالم، فدار بينهما هذا الحوار الكاشف:

" صمتت فاطمة برهة، ثم قالت:

ـ " أليس عجيبًا يا أبتي أن يتبع ملايين البشر تلك الدعاوى الإلحادية الهدامة ؟ إنه أمر مخيف.. "

ـ " لكل مجتمع طبيعته.. انحرف الدين وأفلس في تلك الأصقاع.. فكان البديل ما ترينه من انحراف كانت الشعوب تحلم باليقين والسلام والجنة.. فجاء الشيوعيون بسيوفهم ونيرانهم وعنفهم ليحملوا الناس إلى جنتهم الموعودة.. أصبح الناس هناك مغلوبين على أمرهم.. وإلا لماذا حمامات الدم، والستار الحديدي، وحركات التطهير.. وآلاف السجون.. سعادة الشعوب يا فتاتي لا تقاس بصنع صاروخ جبار، أو سفينة فضاء تحوم حول القمر.. السعادة شيء آخر.. تبدو في رضى القلب، وابتسامة صادقة على الشفاة، وأمن يوشح الضمائر.. وحرية ترفرف أعلامها.. سعادة الفرد هي مقياس أية حضارة.. ما قيمة الحضارة أو المدنية يا فتاتي إذا لم تنعكس على الناس كأفراد ـ بما يسعدهم ويجلب لهم الهناء والأمن والثقة. " (١).

و هنا نجح الأب المثقف العالم المسلم في إقناع " فاطمة" بأفكاره ورؤيته الإنسانية للصراع بين الإسلام والشيوعية، بين الأفكار الحضارية الفانية، والأفكار الاستعمارية الهادمة للأمم والمهلكة لطاقاتها الحضارية الفريدة، ومن ثم لمعت فكرة رائعة في هذا الرأس الملهم الصغير باغتت أبيها بعد صمت (٢):

وصمت أبوها لحظة، وكم كانت دهشته حينما سمع "فاطمة" تقول:

ـ " أبتي.. "

ـ " نعم.. "

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٣٢: ٣٣.

(٢) عذراء جاكرتا: ص ٣٣: ٣٤.

ـ " أريد أن أتزوج.. "

ـ " تتزوجين ؟؟ "

ـ " أعرف أنك قد أجلت هذا الأمر.. "

ـ " وقد حان الوقت.. "

ـ " ممن تنوين الزواج ؟؟ "

ـ أبو الحسن.. زميلي في الكلية.. أنت تذكر أنه قد طلب يدي منك قبل ذلك.. "

هز الأب رأسه في رضى وقال:

ـ " إنه من خيرة شباب "ماشومي" وقد كان شجاعًا في أيام اصطدام الجمعية مع حكومة "سوكارنو".. وأبوه رجل طيب برغم فقره وأنا أرحب بذلك.."

وسادت فترة صمت، قال أبوها بعدها:

ـ " أرجو ألا تكون ظروف الحملة القاسية التي تعرضت لها في الجامعة هي التي أرغمتك على الزواج.. "

قالت في صدق:

ـ " لا شك أن لها دخلاً في ذلك.. "

ـ " يجب أن تدركي أن للزواج اعتبارات أخرى.. "

ـ " أعرف.. "

ـ " أعني أن.. "

ـ " لقد فكرت في الأمر جيدًا.. أن عناصر الزواج الناجح من شرعية وعاطفية متوفرة لدينا.. "

ـ " حسنًا.. فليوفقك الله.. "

الفتاة " فاطمة " تدرك أن هذا الحل الإسلامي هو الذي سيحميها من هؤلاء العابثين، ويقطع ألسنة هؤلاء الفجار الذين روجوا لهذا " الإفك " وأبوها يعرف مدى ميل " أبو الحسن" منها، حيث طلبها للزواج قبلاً ووافق والدها، وهي التي أرجأت المشروع

إلى ما بعد فراغهما من الدراسة.. وها قد حانت الفرصة لاستدراك الأمر، واستأنفت في اليوم التالي حياتها ودورها التنويري في الجامعة، وواجهت هؤلاء الكذبة، ووقفت تصرخ في قاعة المحاضرات متحدية: " الكذب والشائعات، وتنعي موت الضمائر وخسة القيم وتنادي بالحرية الحقيقية وبالصدق.. وتعلن أن " حديث الإفك" لن يغير من منهجها !!.. وأيدها في ذلك خطيبها المختار الشاب الطالب " أبو الحسن ": إن الخداع والإرهاب لن يدوما إلى الأبد.. وأن الجذر الإندونيسية سوف تحطم التيارات الغربية وتحافظ على أصالتها وتراثها. " (١).

فـ "نجيب الكيلاني" في غمرة الصراع الفكري، والمواجهة الحضارية لم يهمل طبيعة النموذج الإنساني الإسلامي، الذي يتميز ربما دون غيره بالمرونة، وتزاوج الطبيعة بين الفردية والجماعية، بين القوة والضعف، بين الحيوية والانطلاق، والسلبية والعطالة، فـ "فاطمة" على الرغم من ما تتميز به من قوة، واندفاع في الحق والخير، إلا أن الشائعات التي أطلقها غريمها وأتباعه، نالت من هذه الصلابة، وحَجَّمت لبرهة من الانطلاق، نالت منها أسلحتهم القذرة التي أطلقوها حولها ؛ "عيديد" وشباب منظمته "قيرواني" !! إلا أنها سرعان ما تبصرت بقيمهما وتقاليد مجتمعها المسلم وقيم عقيدتها الإسلامية الناصعة.

فالمرأة المسلمة شأن كل النساء تتميز إلى جانب قوتها بالضعف، لكن ضعفها هذا وإن كان معترف به في فطرتها إلى أنه طارئ، لا ينال من صلابة شخصيتها وحيويتها التي تدفعها إلى بؤرة القوة وميادين الحياة، لا تكل ولا تمل، من أجل إنجاح قضيتها، وبناء مجتمعها، والحصول على حريتها الكامنة في حرية وطنها.

ولكن كل هذا لا يعفينا من لفت نظر الأديب، الذي ما يلبث ــ وراء إغراء توهج الأحداث، وثراء الشخصيات ــ أن يتدخل بين الفينة والأخرى، ما ينال من هذا التوهج والانطلاق والحيوية التي تهب العمل الأدبي " الجدة التي تمكن الشاعر من إسباغها على قوالبه الفنية هي التي تحدث المفاجأة، فيستيقظ المتلقي على وهجها، أو على وخزها المتكرر، فينهض وقد تنبهت مشاعره الغافية، والتي غطى عليها الإلف والتكرار، فيشارك

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٣٧.

المتلقي في العملية الإبداعية ليس بالمشاركة الوجدانية والاندماج الشعوري فحسب، إنما أيضا بالتفسير وباستكمال ما أومأ إليه الشاعر وأشار، في إيجاز وتركيز،([1]) "... وهكذا يصبح على القارئ مهمة استكمال الجو الذي أثار (المبدع) بعض عناصره، وكأن عناصر التجربة الإبداعية بلورات صغيرة تجسدت فيها حالة فيها حالة المبدع النفسية الشعورية، لديها القدرة على أن تتحلل من تلقاء نفسها ([2])" في إ في آفاق الإبداع، تلك التي ولا ندري ما الداعي لأن يتدخل بالشرح والتحليل والربط بين الأحداث في حدث مثل هذا ؟؟، ولم يدع البطلة "فاطمة" تحكي مأساتها مع "عيديد" ومنظمته عندما أطلقوا وراءها سهام الشائعات التي تنال من شرفها وطهارتها ونقاء فطرتها !! فيقدمها وهي تتألم وتجهش بالبكاء، جراء الألم والوجع، اللذين أصاباها من الظلم الذي رماها به هؤلاء، كان ينبغي أن يتركها تحكي مأساتها مع هذه الجريمة بشكل أعمق وأثري للحدث، فيكون أكثر إقناعًا ورسوخًا في وجدان المتلقي " إن النفس تصنع الأدب وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، والنفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة، إنها دائرة لايفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا، وهما حين يلتقيان يصنعان حول الحياة إطارا فيصنعان لها بذلك معنى، والإنسان لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى([3]) "، فيحلق في عوالم الخيال ويستشعر مدى الجرم الذي ارتكبه هؤلاء الخونة والمضللين، وفي الوقت نفسه يرفعنا إلى مستوى المشاركة الوجدانية للبطل في معاناته ومأساته فيرى كل منا نفسه في هذه المأساة، وهذا هو دور الأدب الحقيقي الذي يبني ويعمر المجتمع الذي يستنبت فيه، فالأدب بقدر ما هو نتاج بيئة مجتمعية ما، فهو ذاته يسهم إلى حد كبير في تشكيل هوية هذا المجتمع التي ترعرع بين جنباته، وهذا ما يفسر بقاء الإبداع الأدبي وصيرورته منذ عصور متقدمة، وكذلك نشر الإيديولوجيات المختلفة التي أودعها الأدباء في نتاجهم

---

١) التجربة الشعرية عند المتلقي ص:٨٨ د عبد اللاه محمود حسن محروس ــ مطبعة الأمانة ــ ١٩٨٨ ــ القاهرة.

٢) مقالات في النقد الأدبي ص: ١٣ د / السعيد الورقي ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨١ ــ القاهرة.

٣) التفسير النفسي للأدب ص:٥ د/ عز الدين إسماعيل ــ دار الفكر العربي ــ ١٩٧٨ م ــ القاهرة.

الإبداعي وجعله يشكل مجتمعات كانت بيئة لإنتاجه، أو بيئة لاستقباله، وترويجه ليشكل هويتها وهذا ما نجده صارخًا في مجتمعاتنا العربية حيث الآداب الماركسية والشيوعية التي شكلت هوية فضائل أو شرائح اجتماعية وجدناها ازدهرت في عصور ما تبنت هذه الأفكار، وأفسحت لإبداعاتها المجال بين شبابها حتى غدت تصورات طغت على قيمنا وتصوراتنا الإسلامية والعربية [١].

ومن المواقف التي بلورت ضعف (طبيعة !!) هذه الشخصية عندما تعرضت لمحنة اختفاء والدها العالم "حاجي محمد إدريس"، عندما سافر في رحلة عمل ودعوة في الآن نفسه، في ربوع البلاد:

" قالت فاطمة:

ـ " إن أبي لن يكتفي بالتفتيش على المدارس، فقد قرر أن يقوم بجولة توعية في أنحاء الجزر.. وسيعود بعد فترة.. "

أما " أبو الحسن " فقد تناوبته الشكوك وعزم على الذهاب للبحث عن "حاجي محمد إدريس" واللحاق به أينما كان..

قال " أبو الحسن " لـ " فاطمة "، وهما خارجان من الجامعة:

ـ " سأرحل غدًا.. "

ـ " رافقتك السلامة.. "

طأطأت رأسها بعد أن نظرت إليه في امتنان:

ـ " وبالطبع لن يتم زواجنا قبل العودة مع أبيك.. "

ـ " أجل.. "

ـ " أنا الذي أطلب التأجيل هذه المرة.. واحدة بواحدة.. "

ضحكت وأحمر وجهها خجلاً...

وبعد بضع خطوات ضحكت وقالت:

ـ " لا تتأخر وإلا.. "

---

(١) أمثال أدباء اليسار والشيوعية قديمًا، والآن الحداثيين ومن سار في ركابهم.

ـ " ماذا ؟ "

ـ " قد يحاول " عيديد" اختطافي كفارس أحمق.. "

بان الكدر في عينيه وغمغم:

ـ " هم لا يعرفون قداسة لشيء.. إنه لا يؤمن بغير العبث.. كان يريد السيطرة عليك بأية وسيلة، أتظنين أنه كان جادًا ؟؟ "

قالت في شيء من الغضب:

ـ " هو وزير.. ولكنه أتفه من أن أفكر فيه.. "

ـ " كان يريد قتلك بأية طريقة.. الزواج إحدى وسائله.. "

ـ " لم آخذ الأمر مأخذ الجد.. "

ـ " أجل.. كان يمزح.. ترى كم مرة قال مثل هذا الكلام لفتيات أخريات؟؟ "

تنهدت " فاطمة " وقالت:

ـ " لشد ما أنا قلقة علي أبي !! احذر يا أبا الحسن.. فالطريق وعر.. والمكائد مزروعة في كل مكان.. لا يخدعنك مظهر الزهور الجميلة في جزرنا الحبيبة.. فالحشرات السامة تملأ الغابات.. وتختفي تحت أوراق الورود الندية.."

قال أبو الحسن بصوت يخالطه الانفعال:

ـ " سيضيء وجهك المؤمن ظلام الطريق لي، وسيظل يسير إلى جواري طول تجوالي.. قلبانا يسيران معًا.. يترنمان بأنشودة صوفية رائعة.. ما أعظم الحب في الله.. "

تبللت أهدابها بالدموع، وغشيتها موجة عارمة من السعادة، وهمست في ارتجاف:

ـ " سأنتظرك حتى تعود.. "

أَخْرَجَ مصحفًا صغيرًا من جيبه، ومَده(١) إليها وهو يقول:

---

١) هذا الفعل ربما لم يعبر عن الحدث !! ولذا كان من اللائق أن يستبدله بالفعل " قدمه " فهو معبر عن ما يريده "أبو الحسن " لخطيبته "فاطمة "..

ـ " هدية السماء.. نعم الصاحب.. سيملأ عليك حياتك، وعندما أعود سنبدأ في قراءته معًا مرة أخرى.. "

تناولت كتاب الله وقبلته.. ثم ضمته إلى صدرها، وانصرفت وقد ازداد تدفق دموعها.. (١).

لم تنس المرأة المسلمة في خضم هذه الأحداث الجسام عواطفها الإنسانية الرقيقة نحو خطيبها وحبيبها وزوج المستقبل، فتداعبه برقي ونضارة، وتلاطفه برقة وحنان، وهي تودعه بابتسامة لا يغيب ضوؤها على امتداد زمن السفر مهما كان بعيدا أو طويلا !!، وهي تطربه وتدنيه، وتذكره بألا يغيب عنها طويلاً في رحلة البحث عن والدها، وتحذره لئلا يستغل "عيديد" غيابه، وينفرد بالفريسة، ويحاول اختطافها منه !!..

فالجانب العاطفي معترف به في الأدب الإسلامي، فهو المسؤول عن تغذية العاطفة في الإنسان: " ينمي أشواقها، ويهذبها، ويرقى بعناصرها " (٢)، ولا يرفضها أو يطاردها كما يدعي العابسون أو الجاهلون !!.

وهنا تدرك البطلة خطر رسالتها في عملية المواجهة الحضارية لـ"عيديد" ومنظمته وشبابها وفتياتها الذين يشغلون الشاطئ الآخر من المواجهة أو الصراع الحضاري، الذي تأجج بينهما وما يزال ؛ لنرى مشهدًا يثري هذه الفكرة (المواجهة) بين قوى الشر والاستعمار والاستحمار الحضاري ـ إن جاز التعبير ـ، وقوى الخير والفضيلة من أهل البلاد الوطنيين الذين يبذلون أنفسهم وأرواحهم رخيصة لقاء تحرر وطنهم !! الذي يهبهم الحرية الكاملة في استئناف حركة الحياة وبناء حضارته.

تتصاعد المواجهة هذه المرة مع العالم الجليل " حاجي محمد إدريس" المناضل والذي لا يحمل من أسلحة المواجهة سوى علمه ودينه وحضارته، في مواجهة زبانية " عيديد" و " أنتونغ" وجنودهما !! الذين يمثلون العدو الشيوعي المحتل، هذا التنين الأحمر الذي يريد أن يلتهم كل ما يمثل بعدا حضاريا وإنسانيا وقيما ربانية تبني وتعمر أرض الله الواسعة لتتهيأ لحياة البشر مهما اختلفت أعراقهم أو أنسابهم أو دياناتهم أو

---

(١) عذراء جاكرتا: ص: ٣٧: ٣٩.

(٢) جمالية الأدب الإسلامي ص ١١٢ محمد إقبال عروي ـ المكتبة السلفية ـ ١٩٨٦ـ الدارالبيضاء.

مذاهبهم أو ألوانهم أو طبائعهم، ويحا أن تدوس أقدامه الثقيلة كل ذلك، وتفرض سيطرته الغاشمة؛ ليؤسس للسيطرة العسكرية الاجتماعية والفكرية.

من ثم، تتبعوا " حاجي محمد.. " رمز الحضارة الإسلامية ونتاج إفرازها المتوضئ، وهو في طريقه للتفتيش على عمل المدارس الإسلامية التابعة لمنظمة "ماتسومي" الإسلامية، وكذلك القيام ببعض الواجبات الدعوية للمسلمين في أصقاع البلاد وأطرافها المترامية !! التي لم تزل على علاقة قوية بإسلامها ووطنها، فيبث فيهم روح الوفاء للوطن، و ويشحن هممهم بطاقات الإيمان،ويفرغ في روعهم شحنات الشجاعة التي تدفعهم للتغلب على خوفهم من مواجهة هذا المستعمر البغي.

هنا،عرفوا بمدى خطورته وهم يجمعون عنه المعلومات، فتتبعوا خطواته، وتنكبوا طريقه، ودبروا له الحيل ونصبوا له الفخاخ حتى اعتقلوه، وألقوا به في غيابات السجن، وهنا سنكتشف عمق التفاوت والاختلاف بين حضارة السماء ؛ حضارة الطهر والنقاء، وبين حضارة الارتكاس في الأرض ؛ حضارة العفن و الصلف والكبرياء الأجوف، الذي يهرع يخاف ويرتعد من قيم الحضارة الإسلامية البانية ؛ حضارة الحب والحياة والبناء،لا حضارة الكراهية والموت والهدم التي يعتنقها هؤلاء الحمقى الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الإنسانية !!

احتالوا على الرجل ! وأخذوه إلى حيث يمكن الانقضاض عليه، واقتياده إلى حجرة قذرة في أحد سجونهم العتيقة، وهنا أدرك " حاجي محمد إدريس " إنه وقع في أسر هؤلاء الجلاوزة من رفقاء الشيوعي "عيديد":

" وفي الحجرة السفلى، أفاق " حاجي " بعد وقت ليس بالطويل، حاول أن يحرك يديه أو رجليه فلم يستطع، أراد أن يتكلم فاحتبست الكلمات خلف الرباط المحكم.. أخذ يزمجر حتى احتقن وجهه، كان الظلام يعم المكان فوق السفينة، وعلى أمواج البحر الصاخب، وكانت بالغرفة شمعة صغيرة استطاع " حاجي " أن يرى على ضوئها رجلين يحملان السلاح، كان الرجلان يرمقانه في شماتة وخفة وقال الأول:

ـ " أيها الرفيق.. يبدو أن " محمدا " يريد التحدث إلينا.. "

ـ " لا شك.. لكني أمقت سفسطته، سيحدثنا عن السماء.. والعدالة.. والأخـوة.. وعـن الله. وأنا لا أطيق مثل هذه الكلمات.. "

ومع ذلك فقد قدم الرفيق الأول، ونحى الرباط المحكم من فوق فم "الحاجي" الـذي اندفع قائلاً:

ـ " ما معنى ذلك ؟ "

ضحك الرفيق قائلاً:

ـ " معناه أنك أسير لدينا.. "

ـ " هل أنتم عصابة ؟؟ ليس معي ما يغري من المـال.. ثـم كيـف تنتهكـون حرمـة شيخوختي وأنا مثل أبيكم ؟.. "

قهقه الرجلان، وقال الأول:

ـ " أنا ضابط بقاعدة " حليم " الجوية ورفيقي مهندس كهرباء.. "

قال " حاجي محمد":

ـ " متعلمون أنتم إذن.. "

أدركا ما يرمي إليه من توبيخ فقال الأول:

ـ " لكننا ثوريون.. "

ـ " وما شأني بذلك كله.. "

ـ " أنت تؤجج ثورة مضادة.. "

ـ " أنني لا أصدق ما تسمعه أذناي.. "

قال الضابط:

ـ " هل في إمكان أية قوة أن تنقذك ؟؟ "

ـ " كل شيء بيد الله.. "

قال مهندس الكهرباء في غضب:

ـ " أفكار العصر الحجري تتسلط على ذهنه.. "

ثم تقدم المهندس منه، وأمسك بخصلة من لحيته البيضاء بآلة حديدية وانتزع الشعر بقسوة، فاهتزت رأس " الحاجي " الذي صدر عنه تأوه على الرغم منه.. ثم تمتم:

ـ " يا أبناء الوطن.. أنا لم أسيء إليكم.. "

فرد المهندس:

ـ " مريض واحد بالكوليرا يستطيع أن ينشر الوباء بين الملايين، هذا منطق العلم يا " حاجي محمد ".. "

دقق " حاجي محمد " فيه البصر وقال:

ـ " أنت صيني.. "

فهقه المهندس وقال:

ـ " ولكني أندونيسي الجنسية.. ألم تقرأ شيئًا عن وحدة الطبقة العاملة في العالم ؟؟ "

قال " حاجي محمد " وقد استبد به الضيق:

ـ " قرأت.. لكن ما الذي يبرر أفعالكم الوحشية هذه ؟؟ "

" هل أنتم سلطة للدولة ؟؟ ولو افترضنا أني متهم أهكذا يعامل المتهم ؟؟ "

ودس مهندس الكهرباء يده في جيبه، ثم أخرج منشورًا شيوعيا مشهورًا، وأخذ يقرأ فيه بصوت عال:

".. أن كل من لا يؤيد حركتنا، ولا يساعدنا هو رجعي أثيم، والحل الوحيد لأمثال هؤلاء هو إبادتهم..".

" إن الكوبي الثوري، والألباني الثوري خير لنا من هذا الإندونيسي الرجعي الحقير الذي يرقص لدقات طبول سيده ".

" ولدت من بطن أمك مهندسًا.. "

أمسك آلته الحديدية، وقبض على شعر كثيف في لحية الشيخ ونزعها في عنف وهو يهتف:

ـ " يا لسخافة أفكاركم !! "

قال " حاجي محمد " وهو يتألم:

ـ " أهذا هو أسلوب متمدين للنقاش ؟.. "

ـ " لا رأي للعفن الرجعي.. "

ثم سدد قبضة قوية إلى فك " الحاجي" مرة ثانية وهو يقول:

ـ " لا أريد أن أسمع هذا الصوت القذر.. "

الليل حالك السواد، والسفينة ترسو على شاطئ مهجور صامت من آلاف الشواطئ في أندونيسيا، ولدى الشاطئ وقفت عربة " جيب " وحُمِل " حاجي محمد" إليها حملاً، ثم قُذِف فيها ودار المحرك، وانطلقت عبر الظلام إلى سجن يقع بعيدًا منعزلاً خارج المدينة.. وحوله الأسوار والأسلاك الشائكة والحراس والكلاب.. ووجد " حاجي محمد " نفسه أخيرًا في حجرة ضيقة قذرة، كان مربوط العينين، ولم يكن ألمه إلا لأنهم انتزعوا منه المصحف قبل إدخاله إلى زنزانته... (١).

و" نجيب الكيلاني " لا شك بارع في وصف مثل تلك المشاهد ؛ لأنه عانى لقاء معارضته لنظام " ثورة يوليو " فدخل السجن أكثر من مرة، و عانى من استجوبه كثيرًا من زبانية السجون في سجون مصر المختلفة ؛ " الحربي و طرة وقرا ميدان " وحكم عليه في آخر مرة بالإعدام، إلا أن هزيمة يونيه ١٩٦٧م أنقذت رقبته من حبل المشنقة، فأطلق سراحه هو ورفاقه من السجناء السياسيين، وغادر مصر إلى الكويت للعمل طبيبًا، ثم منها إلى الإمارات العربية المتحدة وظل بها حتى وافته المنية في إحدى مشافي المملكة العربية السعودية.

فللرجل خبرته الإنسانية في رسم أو تشكيل تجربة السجن ولعلك ـ أخي القارئ ـ ترى عبر الحوار السالف: كيف هي رؤية كل منهما ؟ وكيف تدار المعركة بين طرف ضعيف ليس له من سلاح غير علمه وتقواه وفكره الحضاري، وبين طرف يستقوى بأدواته القمعية ورجاله الوقحين الذين يظهرون صفاقة متجاوزة لكل الحدود مع شخص الرجل العالم الكبير السن والمقام في مجتمعه، والذي يراه المحقق المغرور بأنه: " مرض ؛ وباء، عفن، رجعي، صوت قذر، أفكاره خبيثة، أثيم يستحق الإبادة.. "

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٤٣: ٤٧.

هذا هو دأب المستعمرين والطغاة في كل زمان ومكان، ماذا تراهم أن يفعلوا مع من يرفض وجودهم في بلادهم ويقاوم استعمارهم، ويراهم أعداء ؟!.

تعالوا معنا لنرى مشهدًا آخر في عملية التحقيق مع الرجل، وماذا فعلوا معه ؟:

إن " حاجي محمد " يعاني آلامًا مُرة في هذا السجن الغريب، وهو يسمع أنات المستغيثين فتزداد آلامه، وقبيل الفجر يفتح الباب ويعاد إحكام ربط عينيه ثم يساق " حاجي محمد " خارج الزنزانة " الهواء بارد رطب.. وهدير البحر ينبعث كغضبة مكبوتة.. ويجره السجان جرًا عنيفًا حتى يكاد ينكفئ.. أحيانًا يجره من يده.. أو يدفعه في ظهره، أو يسحبه من أذنه.. معاملة مهينة.. وهو صامت يمضي في طريقه يتعثر.. لا يدري هل ستقع قدمه في حفرة، أو يصطدم وجهه بجدار ؟.. إنه يحاول أن يرى بأذنيه.. يتسمع الهمسات ووقع الأقدام ويحاول أن يفهم.. وفجأة يشعر بركلة قوية تقذفه على وجهه.. ويهتف في وهن:

ـ " الرحمة.. "

لكن سوطًا يهوي على رأسه وجسده، لم يعد " حاجي " يشعر بآلام جسدية.. جلده أصبح كالمخدر.. لو قطعوا ذراعه أو شقوا بطنه بسكين لما شعر بآلام تذكر.. هنا تصبح الحياة تافهة لا قيمة لها.. لحظات يبدو فيها الأمل في النجاة صفرًا.. وسمع صوتًا أجشا يقول:

ـ " ارفعوا العصابة عن عينيه.. "

نظر فرأى مهندس الكهرباء، وضابط قاعدة " حليم " للطيران وثالثًا يبدو أنه قائد السجن، كان الأولان منكبين على طعام يزدردانه في شراهة، وأمامهما زجاجة كاملة من الويسكي، وقال قائد السجن وهو يجلس على مكتب أنيق، تعلوه صورة الرئيس " سوكارنو ":

ـ " ليس لدينا وقت.. "

لم يجب " حاجي محمد "، بينما استطرد القائد الأسمر:

ـ " إن استجوابك معناه أننا نريد الإبقاء على حياتك "

ـ " لم أرتكب جرمًا "

قال القائد في ضيق:

ـ " هل أنت من جماعة " ماشومي" الإسلامية ؟ "

ـ " يا ولدي جماعة ما شومي يتبعها الملايين في أنحاء الجزر الإندونوسية... "

ـ " أفهم من ذلك أنك ترد بالإيجاب ؟ "

ـ " نعم.. أنا أحد أعضائها.. "

ـ " حسنًا.. نريد أن نعرف شيئًا عن نشاطكم السري، وما تحوزونه من سلاح.. تكلم يا "حاجي محمد ". "

قال " حاجي محمد " وقد تبللت عيناه بالدموع:

ـ " لم أحمل السلاح منذ حربنا مع الهولنديين "

قال القائد ساخرًا:

ـ " تريد أن توهمنا أنك كنت أحد المجاهدين الأبطال.. "

ـ " الحقيقة أنني كنت كذلك قبل أن يتقدم بي العمر.. والسجلات تشهد به.. ولدي وسام من الحكومة.. ولي مواقف مشهودة. "

هب الضابط واقفًا، ثم صفع " حاجي محمد " قائلاً:

ـ " هذا لا ينفي أنك رجعي خطير.. "

دارت رأس " حاجي محمد " وهتف:

ـ " ما معني رجعي ؟؟ "

اقترب منه وقال:

ـ " رجعي يعني متخلف.. ضد التطور.. يعني ثورة مضادة.. أو عميل الإمبريالية والاستعمار.. ألا تقرأ الصحف ؟؟ "

ـ " ليس بي شيء من هذا كله.. فأنا رجل أحب العلم والتقدم، وأريد لبلدي الحرية والعدل.. والمواطنون جميعًا أخوة.. في ظل شريعة الله.. "

صرخ قائد السجن قائلاً:

ـ " قف.. "

ـ " تلك هي الحقيقة.. "

ـ " كذبت.. "

ـ " وليس لي أو لجماعة " ماشومي " أي نشاط سري.. وليس في منزلي قطعة واحدة من السلاح.. "

ـ " كذبت.. "

ـ " أثبتوا غير ذلك.. "

ـ " أتنكر أنك تهاجمنا في الشارع.. ومن فوق المنابر.. "

ـ " ومن أنتم ؟ الحكومة ؟؟ "

ـ " نحن أكبر من ذلك.. نحن قوى الشعب الحقيقية الممثلة لإرادة الجماهير.. "

قال " حاجي محمد " في توسل:

ـ " يا ولدي الأمور لا تسير هكذا.. أريد أن تحاسبني في قانون معروف يظهر ما لي وما علي وأريد أن يكون لي الكفالة التي ينص عليها الدستور.. لأنه كما يبدو لا توجد تهمة ذات قيمة موجهة إلي.. "

كز القائد على أسنانه:

أيها الحيوان المنقرض:

ـ " لِمَ تلوكون هذه العبارات التي لا مدلول لها ؟؟ "

ـ " خسئت.. "

غامت عينا " حاجي محمد إدريس " بالدموع وقال:

ـ " عن رب العزة يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا عبادي.. إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا.. فلا تظالموا..".

ـ " قهقه الرجال الثلاثة، وقال مهندس الكهرباء:

ـ " أيها العالم المتدين.. أتعرف شيئًا عن قانون الصراع ؟؟ "

ـ " أعرف أن صراع الحق والباطل دائم ما دامت الحياة.. "

ـ " وما نتيجة ذلك الصراع ؟؟ "

ـ " يقول الله في كتابه: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (١).. "

ـ " وأنت ؟؟ زبد.. أم نفع.. ؟ "

ـ " أنا أحمل الكلمة الطيبة. وأحب الناس.. ولا أوذي أحدًا إلا الحشرات الضارة.. "

وسادت فترة صمت قال " حاجي محمد " بعدها:

ـ " أشعر بالظمأ.. "

قال ضابط قاعدة " حليم ":

ـ " ستشرب من ماء زمزم.. "

تذكر " حاجي محمد " يوم أن ذهب إلى مكة، مئات الألوف يتدافعون إلى الحرم الآمن.. إلى الكعبة.. الحمام يطير، والأكف تضرع إلى السماء.. والناس من كل لون وجنس.. والابتهالات والتكبيرات تشق عنان السماء.. يا لها من لحظات خالدة شجية.. نسي " حاجي محمد " نفسه. نسي الرجال الثلاثة.. والسوط.. وآلة انتزاع الشعر.. نسي كلمات المحقق الجوفاء.. خيل إليه أنه قابع عند " مقام إبراهيم " والحشود تطوف حول الكعبة.. والسقاة يأتون بالماء العذب من زمزم.. وخيل إليه أنه يتناول إبريقا وأخذ يشرب.. ويشرب حتى ارتوى، ودون أن يشعر أخذ يردد " لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.. "

وقف قائد السجن، وأمسك بكتف " حاجي محمد " وصاح به:

ـ " لِمَ لا تجيب ؟ ماذا تقول ؟ هل جننت ؟ "

أفاق " حاجي " من شروده وقال:

ـ " البقاء لله وحده ".

---

(١) جزء من الآية (١٧) من سورة الرعد.

قال مهندس الكهرباء وكان قبل ذلك قد رفع العصابة عن عيني الشيخ:

ـ " هل رأيت الله ؟ "

قال " حاجي محمد " في ثقة:

ـ " نعم رأيته..

ـ رأيته في بديع خلقه، وفي تنسيق ملكه، وفي عظيم سننه التي تسير الكون، وتحرك الأفلاك، وتنظم البحار والرياح... كل شيء يدل عليه سبحانه.." (١).

طالت غيبة الأب عن بيته، وكادت الابنة " فاطمة " أن تُجن جراء غياب والدها غير المبرر أو المفهوم، ومن ثم تسرب إلى نفسها اليأس والقنوط، وسئمت الحياة في بلد كهذا لا يؤتمن فيه الإنسان على نفسه، حيث لا معنى لوطن لا أمن فيه ولا حرية.. وهنا تتلقفها الأم المسلمة الصابرة المجاهدة قرينة المجاهد وعونه على الحياة:

ـ " هذه بلاد لا يأمن فيها المرء على نفسه.. "

قالت أمها:

ـ " وما ذنب البلاد ؟؟ الذنب ذنب أهلها.. "

ـ " لا معنى للوطن بلا أمن أو حرية.. "

ـ " هو كذلك... "

قالت " فاطمة " وهي تعبث بضفيرة شعرها في توتر:

ـ " لم لا نرحل عن هذه الأرض ؟ "

ـ " لكنها أرضنا يا فتاتي.. عاش أجدادنا من قرون.. "

ـ " لم يعد للحياة معنى هنا.. "

ـ " وأين نذهب يا ابنتي ؟ "

ـ " بلاد الله واسعة.. "

تنهدت أمها وقالت:

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٥٠: ٥٥.

ـ " استغفري الله يا فاطمة، وقومي إلى الصلاة "

تساقطت الدموع من عيني " فاطمة "، وقالت والدموع تملأ عينيها:

ـ " لشد ما أحب بلادي يا أمي.. لكن أبي و.. لم يعودا.. أصبحت أضيق ذرعًا بكل ما أراه في الشارع والحوانيت والجامعة.. نحن أشد الناس تعاسة.. الحاكم لا يحمي أحدًا والشرطة لا توفر الأمن، ولا كرامة لأحد.. " (١).

وهنا ربتت أمها على ظهرها في حنان، وأخذت تذكر لها أن الدنيا ليست حلوة المذاق دائمًا، وأخذت تروي لها ذكريات الماضي عندما جاء الاستعمار الهولندي، والمعارك الشرسة التي دارت رحاها في البلاد.. واليابانيون عندما جاءوا لطرد الهولنديين، واحتلت هي الجزر، وكان الأندلسيون يحاربون كل هؤلاء، وكان معهم أبوها وأعلنت وفاته وقتها، ولكن انقضت الحرب وانقشعت النقمة وعاد أبوها بعد أن تسلمنا حاجياته بعد إعلامنا باستشهاده.

وهنا نسيت " فاطمة " نفسها وهي تستمع لكلمات أمها.. تخيلت المشهد بكل دقائقه ابتسمت " فاطمة " في سعادة على الرغم من بقايا دموع تتعلق بأهدابها الجميلة.

وفي هذه اللحظة المفعمة بالمشاعر العارية والمختلطة عاد " أبو الحسن " خاوي الوفاض، من لم يعثر بالرجل ولا يخبر عنه !!.. وهنا تهرع الأم إلى ربها فترفع كفيها إلى السماء وتتمتم:

ـ " لن نشكو إلا إليك أنت.. أنت رب المستضعفين.. "

وفي هذه الأثناء وبعد ليلة ماطرة تجد " فاطمة " رسالة ألقيت في الظلام من تحت الباب، فأخذت تقرأها في انفعال:

" حاجي محمد إدريس يناشدكم الرحمة، ويطلب التوسط عاجلاً لإخراجه من محبسه، إنه يقاسي أشد صنوف البلاء، لا تدخروا وسعًا في إنقاذه، من الأفضل الاتصال بشخصية كبيرة في الحزب الشيوعي، فهم وحدهم القادرون على تحريره مما يعاني من العذاب " (٢).

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٥٧، ٥٨.

(٢) عذراء جاكرتا: ص٦٣.

وهذه الرسالة أسهمت في نقل الحدث إلى الأمام، وأخذت تطرح حلولاً للغز الذي اكتنف غياب " الأب الشيخ حاجي محمد " وحدد الجهة التي اختطفته بل وقدم لهم الحل الذي حدده (شخصية كبيرة من الحزب الشيوعي) فوضعتهم الرسالة أمام المهمة الصعبة حتى يستطيعوا أن يبحثوا عن حل لها، وفي خلال رحلة البحث عن حلول، ستتصاعد مدة المواجهة بين الأطراف المتصارعة في العمل الأدبي.

وتوظيف الرسائل في العمل الإبداعي، تقنية تعرف بـ"السرد المدرج" وهو" ما يقع بين فترات الحكاية، ويتخلل النسيج القصصي، وينبثق من أطراف عديدة، تتحاور في العالم الحكائي للقصة فتصبح الرسالة المتبادلة بين الشخصيات المختلفة، وسيطًا للسرد وعنصرًا في بناء العقدة، فتكون الرسالة قيمة إنجازية، ووسيلة تأثير في المرسل إليه، في الوقت نفسه، فتبرز خلالها الأحاسيس والمشاعر والعواطف الإنسانيةّ ؛ لتساعد على الإرهاص والتنبؤ بالمصائب قبل وقوعها، والنتائج قبل تكشفها، وتهيئ في الوقت نفسه للذات المتلقية لتصديق ما يجري من الأحاديث والوثوق بصحتها، والاقتناع بجريانها، بعيدًا عن الثرثرة واللغط الذي لا يكون مفيدًا في حال من الأحوال في تنامي الأحداث أو تداعيها.." (١).

وعلى الرغم من أن هذه الرسالة أعلنت خبر احتجازه لدى الشيوعيين إلا أنها زرعت في قلوبهم الأمل ودفعتهم إلى طريق السعي والتفكير في وسائل متعددة، ربما توصلهم إلى حيث يوجد وتمكنهم من إنقاذه، فأخذت " فاطمة " في طرح عدة سبل للقيام بهذه المهمة: منها إمكانية الذهاب لرئيس الدولة "سوكارنو" إلا أن خطيبها " أبو الحسن " عارض هذا الرأي لأن حرسه لا يسمح بمثل هذه المقابلات !!.

إذا كانت هذه الفرضية فشلت فما كان من " فاطمة " إلا أن سطعت في ذهنها فكرة أخرى.

ولمعت في ذهن " فاطمة " فكرة، وقالت ووجهها يشرق بالأمل الواثق المتحدي:

ـ " سوف أذهب إليه "

---

(١) اللغة وتقنيات البناء القصصي ص ٧٧ ـ د / كمال سعد محمد خليفة ـ مطابع جامعة أم القرى ـ أولى ـ ٢٠٠٩م ـ مكة المكرمة.

وتطلعت العيون إليها في شغف في طلب المزيد من التوضيح، قالت "فاطمة" وهي تبتسم:

ـ " سأقابل " عيديد " "

صرخ " أبو الحسن " في غيظ:

ـ " مستحيل "

احتقن وجهها وهتفت في إصرار:

ـ " لن أترك أبي للعذاب والموت.. "

ـ " اهدئي يا فاطمة.. فالرجل ناعم الملمس كالثعبان.. هذا هو "عيديد"

سأطرق كل باب من أجل أبي..

ـ " إذن سآتي معك.. "

ـ " بل سأذهب وحدي يا أبا الحسن.. "

قال الشاب في ضيق:

ـ " أتقدمين نفسك وليمة للذئاب.. "

ـ " لن أكون إلا سمًا في حلوقهم.. " (١).

وأخيرًا قالت " فاطمة " لأبي الحسن:

ـ " حسنًا.. أنت تكره " عيديد " وأنا أكرهه، لكن القضية ليست هكذا.. القضية هي إنقاذ أبي.. فلننح الانفعالات جانبًا.. لننس الحب والكراهية الآن. هذا عين الصواب.. "

ولم تدخر " فاطمة " وسعًا في اليوم التالي، أخذت تبحث عن " عيديد" في كل مكان، ذهبت إليه في مقر وزارته أخيرًا، وكان موجودًا هناك، وانتظرت أكثر من ثلاث ساعات دون فائدة، قالوا لها إن الوزير في مقابلة مهمة مع السفير الصيني، ولا يمكنه مقابلة أحد اليوم، ثم أخذوا اسمها وعنوانها، وطلبوا منها الانصراف على أمل الاتصال بها في الوقت المناسب.. وذهبت في اليوم التالي مساء إلى مقر الحزب، لقد رأت سيارته

---

(١) عذراء جاكرتا: ص ٦٥: ٦٨.

واقفة بالباب، لكن الجميع أنكروا وجوده، كانوا ينظرون إليها وإلى ملابسها كأنها إنسان هبط من المريخ لتوه، وبعضهم كان يسخر منها، وضاقت " فاطمة " ذرعًا بالانتظار وشرحت الأمر لإحدى صديقاتها المقربات، فقالت لها إنها تعرف امرأة في منظمة النساء الشيوعيات " قيرواني" اسمها " جميلة "، قد يمكن الإفادة منها.. وخاصة أن " جميلة " وزوجها عضوان بارزان في الحزب.. حينما ذهبت " فاطمة " للقاء " جميلة "، كانت وحدها، استقبلتها بنظرات فيها التوجس، والشك، ليكن أي شيء، إن ما يهم " فاطمة " هو أبوها.. ولا أحد غيره، وهي على استعداد لتقبل أي شيء في سبيل خلاصه.. كانت " جميلة " عصبية تكثر من الحديث وترديد الشعارات، تواكبها عنجهية ظاهرة لا مبرر لها، وكانت حولاء مخيفة النظرات، توحي لمن يراها بالكراهية والخوف، وبعد أن سمعت " جميلة " قصة الاختفاء كاملة قالت في خبث:

ـ " لقد سمعت هذه القصة قبل ذلك، ولا أجد فيها دليلاً واحدًا يؤيد ظنونك في أن رجالنا اختطفوه " فأخرجت " فاطمة " الرسالة الموجزة، وقدمتها لها.. وبعد أن قرأتها قالت:

ـ " حتى هذه أيضًا لا تعتبر دليلاً.. "

ـ " أختاه.. إنني أتوسل إليك.. "

ـ " لكن أمرًا كهذا بالغ الصعوبة. "

ـ " إنها مساعدة إنسانية.. "

قالت جميلة في صفاقة:

ـ " إن مساعدتي لأحد الرجعيين تسيء إلى سمعتي.. "

ـ " لكنه بريء.. "

ـ " مجرد وجهة نظر قد لا يتفق معك فيها الكثيرون.. "

وابتلعت " جميلة " ريقها، وقالت في شيء من الارتباك:

ـ " ثم إن الأمر يحتاج لنفقات باهظة.. أعني لابد من السفر إلى هنا وهناك.. والتحري الدقيق.. والبحث عن مكانه.. "

أدركت " فاطمة " ما ترمي إليه ".... "، إنها رشوة مقنعة.. حسنًا..

وقال " فاطمة ":

ـ " هذا لا يهم.. إنني أعرف ذلك جيدًا.. "

ـ " ألديك ثلاثة آلاف روبية.. "

دهشت فاطمة، فالمبلغ بالنسبة لها كبير، لكنها على استعداد لأن تبيع ملابسها لو اقتضى الأمر لإنقاذ أبيها، وقالت وهي تطأطئ رأسها في استسلام:

ـ " اتفقنا.. "

ولم تضع " فاطمة " الوقت سدى، فقد جمعت كل ما في البيت من ذهب بسيط وباعته، وبحثت عن بعض الأثاث الجيد والتحف القديمة وذهبت بها إلى السوق، واقتضى الأمر أيضًا أن تستدين بعض الأموال من الأقارب والأصدقاء، وكم كان ألمها حينما أخرجت مكتبة أبيها بأكملها، وباعتها لأحد تجار الكتب القديمة..

وعلقت أمها قائلة:

ـ " المال يذهب ويجيء.. أنا لا آسف على شيء..المهم أن يعود الغائب المسكين.. "

وشعرت " فاطمة " بارتياح كبير بعد أن قدمت لـ " جميلة " ألفين من الروبيات الاندونيسية، على أمل دفع الباقي في أقرب فرصة، ولم تعترض " جميلة ".. ".

" فاطمة " لم تدخر وسعًا في سبيل إنقاذ أبيها ـ حاجي محمد إدريس ـ حتى لو اضطرت إلى المخاطرة في مقابلة عدوها اللدود " عيديد"، والذي تعرف أنه ذئب لو تمكن منها لافتراسها دون هوادة، وربما كل هذا التعقب لها ولوالدها ربما الأساس فيه استعصائها عليه، وعدم الانكسار أمامه وفضحه وهزيمته في المواجهات والمناظرات الفكرية التي تواجها فيها معًا وتمكنت منه، وأفسدت عليه غروره وهزمته في عرينه وبين شباب وقيادات حزبه ومنظمته في الجامعة أو حتى في مقر المنظمة والحزب، لكنها لم تتهيب كل هذا، وصممت في إرادة فولاذية على مواجهته مرة أخرى وطلب مساعدته في الإفراج عن والدها لكنها للأسف لم تعثر به، ولم تظفر بوجوده، فدلتها إحدى صديقاتها على إحدى مساعداته وعضو في الحزب اسمها " جميلة " والتي لم يكن فيها من اسمها شيء، إلى جانب وصفها بـ (كانت حولاء مخيفة النظرات !)، فلعل حَوَلَهَا

يرمز إلى انحراف فكرها، وتحول نظرتهم من الآخرين الذين يختلفون عنهم فكريا ومذهبيا وعقديا !!، وكأنها مفارقة قصد إليها المبدع قصدا حتى يرينا الجمال متجسدا في قبحه الأصيل حيث استغلت حاجتها وطلبت رشوة لقاء مساعدتها في فك طلاسم هذه المشكلة، وخضعت " فاطمة " لهذا الطلب بوصفه ضرورة تبيح لها عقيدتها وإن لم تتفق مع مبادئها ارتكاب هذا الفعل ؛ لأن هؤلاء القوم يتمتعون بصفاقة ونذالة لا منتهى لهما!! ومن ثم، لا يقدمون خدمة ما لمثل هذه الـ " فاطمة " إلا بمثل هذه الرشوة !!. ولعلها رأتها أخف الضررين عندما يتطلب الأمر تنازلاً ما قد لا تقوى عليه أو تستطيع الوفاء به، وإن كان هذا عسيرًا كذلك ماديًا ونفسيا ودينيًا.. لكن ما باليد حيلة !! حتى تتجاوز هذا الأمر.

وحتى هذه ــ على فداحة تقبلها وشناعة تصورها ــ أفسدها تسرع خطيبها " أبو الحسن " عندما تهور وأتى بعض الأفعال التي أدت إلى القبض عليه والتحقيق معه، وأقر بأننا دفعنا رشوة لـ"جميلة" !! فاستدعيت للتحقيق وأنكرت، ومن ثم، نهرتها ــ عندما ذهبت تستفسر عن الأمر.

" ــ وصرخت في حدة:

ــ " اذهبي إلى الجحيم.. لقد أتلفتم كل شيء بحماقتكم.. "

ــ " لكن.".

قاطعتها " جميلة " قائلة:

ــ " إذا لم تذهبي، فسأستدعي الشرطة.. "

وصفقت الباب، وتركت " فاطمة " واقفة تحت الظلام، والمطر وعيناها تذرفان الدموع السخية..

لقد سُدت أمامها كل المنافذ التي يمكن أن توصلها إلى نتيجة في مشكلتها التي تؤرقها وتقض مضاجع أسرتها حتى ولو بالرشوة !!.

وعلى الرغم من تصادم هذا التصرف مع مبادئها ودينها إلا أمها مرغمة، وهي تعي بما تتصرف أو تتخذ من قرارات، فالقرآن الكريم ذلك الكتاب دستور الهداية للأمة

ربما يرفع الحرج في ارتكاب مثل هذا الفعل، يقول تعالى (١): " مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ..." وفي موضع آخر من ذات السورة يقول تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (٢) ودفع الضرر مقدم على جلب المصلحة، وفاطمة تكرهها ظروفها ويدفعها إجرام مناوئيها وعجزها المستطير على أن تفكر في أمر الرشا أوأمر لجوئها لآخر من يمكن أن يمد لها يده أو يحل لها مشكلتها في هذه القضية ؛عدوها اللدود "عيديد " الذي تعرف أنه سبب كل هذه المشكلات..

فما كان منها إلا أن ذهبت إليه تحوم حول قصره علها تعثر بخياله، ولعله يتجاوز عنجهيته وغطرسته هذه المرة، ويستيقظ في قلبه شيء مما يميز البشر ويفيء إلى فطرته وإنسانيته ويتخلى عن صلادته التي قد من جبل الصوان قلبه !!

وما إن لمحته في الظلام من بعيد ــ وهي غارقة في التفكير ــ خارجا من قصره حتى صاحت:

ــ " عيديد.. عيديد" أريد مقابلتك.. "

نظر إليها بدهشة، لم يزايله هدوؤه، بينما جرى الحراس وأمسكوا بها، وهي تصيح:

ــ " لا تدعهم يمسكون بي.. يجب أن تسمعني.. "

ابتسم " عيديد " في برود، ومضى في خطى ثابتة صوب باب السيارة المفتوحة، وانطلق دون أن يعيرها أدنى اهتمام.. قالت وهي تنشج نشيجًا عاليًا:

ــ " أيها الطاغية.. يا من لا تعرف الرحمة.. "

ورنت على فمها صفعة قوية جعلت الدماء تسيل من فمها، قالت والدماء تنقط شالها الأبيض:

ــ " أيتها الوحوش.. لا بد وأن الله سينتقم منكم.. "

---

١ الآية: ١٠٦ من سورة النحل.

٢ الآية: ١١٩ من سورة النحل.

ثم جروها إلى كشك خشبي صغير قريب من البيت، نظرت حولها فلم تر غير الوجوه الكالحة القاسية، والنظرات الحاقدة..

ـ " دعوني أذهب إلى بيتي.. "

ـ " سوف نرمي بك خلف الأسوار مع القاتلات والسارقات.. "

وظهرت أمام الكشك الخشبي امرأة عليها مسحة من الجمال، تلبس الفاخر من الثياب، وتفوح من أرادانها رائحة ذكية، فأفسح لها الجميع الطريق وهم يغمغمون:

ـ " السيدة تانتي "

وأحنت " تانتي " رأسها في ابتسامة صافية همست:

ـ " معذرة.. هيا معي.. "

قال قائد الحرس:

ـ " لكن.. المفروض أن نسلمها للشرطة.. "

ـ " لا شأن لك. "

دخلت " تانتي " وإلى جوارها " فاطمة ".. القصر رحب، حلو القسمات، تلمؤه الزهور واللوحات الزينية، وصور للزعماء اليساريين، تتوسطهم صورة " عيديد وسوكارنو ".. والثريات المعلقة تبهر الأنظار، والخدم نساء ورجالاً يتحركون في أدب ورقة، لا يجرؤ أحدهم على أن يلقي نظرة على ما يجري..

ـ " يا إلهي.. إن قصرك يا سيدتي جميل.. رائع. "

ـ " عيناك لأجمل من كل شيء.. "

كانت " فاطمة " متوترة مرهقة، تكاد تجن، والأحداث المتوالية تضغط على أعصابها، وهمست في شرود:

ـ " أخذوا أبي.. "

ـ " مَن أبوكِ ؟! "

ـ " وسجنوا خطيبي.. "

ـ " لا أفهم شيئًا.. "

ـ " و "عيديد" رفض مقابلتي.. "

ـ " اهدئي.. واحكي لي عن كل شيء.. "

ـ " بعنا كل ما نملك، الحياة أصبحت ممقوتة.. كلها عذاب.. أشعر بضياع قاتل.. لِمَ كل هذا ؟؟ " ثم انتابتها موجة البكاء.

كانت " تانتي " تربت على ظهرها في حنان، وأشارت إلى إحدى الخادمات، ثم صبت لها كأسًا وقالت:

ـ " اشربي يا فتاة.. "

نظرت " فاطمة " بعيون ممتلئة بالدموع وقالت في رعب:

ـ " حاشا لله.. لا أشرب الخمر.. "

ـ " لماذا ؟؟ "

ـ " لأنها حرام.. "

ضحكت " تانتي "، لم ترغمها على الشرب، واستطاعت أن تهدئ من روعها وتعرف قصتها كاملة، وأخيرًا هزت " تانتي " رأسها وقالت:

ـ " أنا لا أرتاح لأمثال أبيك.. ومع ذلك فسأحاول مساعدتك.. هذا وعد."

الشمس مشرقة، وعيون " فاطمة " يحرقها العذاب والاحتقان، وضحكت " فاطمة ".. ضحكت لأنها تركب " سيارة " فاخرة، أصرت " تانتي" أن توصلها إلى بيتها.. وتطلعت عبر زجاج السيارة إلى العراة في شوارع "جاكرتا"

ثم أطرقت صامتة..

ربما أنست " فاطمة " من " تانتي "، زوج غريمها اليساري " عيديد " وهي رفيقته اليسارية التي ربما لا تختلف عنه في كراهيتها للإسلام والمسلمين والمسلمات.. إلا أنها ربما رقت لحالها وطفرت على سطح شخصيتها شيء من طيف الفطرة الإنسانية المركوسة في قاع الإنسان ذلك المخلوق الرباني العظيم ! فأمنت فاطمة ـ انطلاقا من وازعها الإيماني المتصالح حتى مع المخالفين والمختلفين مع تصورها الفكري ـ شيء

من مكرها وشرورها التي أذاقوها وأسرتها كثير من صنوفها!، فارتاحت إليها بعض الشيء، عندئذ تخلصت " فاطمة من ضعفها وامتنعت عن قبول شيء من ضيافتها عندما قدمت لها " الخمر " معلنة أنها لا تشرب !! ومن ثم ؛ لأن الخمر حرام في دينها، وهنا تحاول فاطمة أن تعلن عن هويتها بشجاعة دون مواربة أو مجاملة، سيما إذا ما تعلق الأمر بأوامر الله ونواهيه قال تعالى: يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (١) " هذه الهوية التي ربما تجهلها " تانتي " وفي ذات الوقت ترفض هذه الهوية كل هذا العبث الذي تلوذ به تلك الإيديولوجيات المتصادمة مع الإسلام، فللمرة الثانية تعلن فاطمة عن رفضها لتصورات هؤلاء الشيوعيين الغرباء عن فكر الإسلام والوطن ذي الهوية الإسلامية، فإذا كانت قدمت رشوة في الأولى وضعفت وقبلت بما هو معترف به في الضعف الإنساني الذي يقدره تصورها الإيماني ويتعامل معه بأنه ضعف ظاهري ومؤقت وغير متمكن أو مرتكس في شخصية المسلم، ومن ثم سرعان ما يفتح له خالقه العظيم خطوط العودة إلى الحق ويقدم له طاقات ومقومات تعيده لرشده وصوابية حركته مرة تلو المرة ما دام غير مصر أو متعمد الإصرار والاستهزاء برحمة الله به، لكن وبرغم تلك الفاعلية الفطرية في روحانية التصور الإسلامي إلا أن فاطمة عندما تكرر الخطأ لم تنسق وراء ما يقدمه الإسلام العظيم من رخص لقبول ما يتصادم مع خلقه العظيم أو إدارته لسلوكيات أتباعه بالعفو والرحمة والمغفرة سيما إذا ما كان قلب المسلم مطمئنا بالإيمان، كما فاطمة في هذه المواجهة الحضارية مع خصومها، وخصوم أبيها، والإسلام الذي يرتضيانه منظما وباعثا لحركة حياتهما في هذا الكون، وعلاقاتهما مع كل مفرداته مهما تخالفوا أو اختلفوا.

" فاطمة" تعلن رفضها لارتكاب مخالفة توقعها في الإثم هذه المرة، تكره أن يعتدي على حرمات الله، أو تتجاوز مهما كان الأمر، فلعل في مرضات الله ما يفكها من إسار المأساة التي تعاني وأسرتها منها، ويرقق قلوب عدوتها ! وتساعدها في معرفة مكان اختفاء أبيها..

---

١) الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

فالثقة بالله لا تنافي الأخذ بأسباب تحقيق الهدف طالما لم تكتنفه مخالفة شرعية أو معرة اجتماعية ومن قبل ذلك تعد الثقة هي وقود همة المسلم وتنفث في روحه قوة ربما لايدركها الخائفون !!..

ولعل القاص أراد أن يرينا فخامة الحياة التي يعيشها هؤلاء اللصوص المتواطئون مع المستعمر وعملائه، في الوقت الذي يعيش أهل البلاد ويرسفون في أغلال الفقر وشظف العيش والمطاردة ؛لأنهم ينكرون عليهم ما يفعلونه بهم ويرفضون الخنوع لترهاتهم أو انحراف عقائد تصوراتهم. فمن ثم، يسيمونهم سوء العذاب ــ القتل والسجن والتغريب والمطاردة: شأن كل المستبدين في هذه البلاد التي تعيش هذا الواقع الأليم.

ربما أراد المؤلف عبر (عيني فاطمة) أن يرينا كيف يعيش هؤلاء الأوغاد !! ، و كيف هي قصورهم ؟! في الوقت الذي يعيش فيه أبناء البلاد؛ المسلمين في غياهب المعتقلات، دون ذنب اقترفوه غير أنهم يوقنون أن الله (عز وجل) واحد ؛ لا إله إلا هو، و أن محمدا " صلى الله عليه و سلم " نبيه و رسوله، أرسله بدين الهدى والحق ، وكلفهم بتبليغ رسالته ، و هم يرون أنفسهم دعاة لدينه و تعاليمه و قيمه. و من ثم، تخليص المجتمع من كل دعاوي الإلحاد و الشرك ، و مواجهة الاستعمار الذي ينهب ثرواتهم و تحقيرهم في بلادهم ، فيأخذنا الكاتب إلى حيث يختفي (حاجي محمد إدريس) الداعية و البطل المجاهد المسلم (١).

" في معتقله البعيد كان " حاجي محمد إدريس " يقاسي العناء ألوانا؛ كانوا يضربونه على الرغم من شيخوخته ووهن صحته ، و كانوا يكيلون له السخريات ، و هي أشق على نفسه من ضرب السياط ، و في الأوقات القليلة التي يفرغ فيها لنفسه داخل الزنزانة شبه المظلمة يجلس متجها ناحية القبلة ، فيقرأ ما حفظ من آيات القرآن ، و يردد الدعاء وعيناه مخضلتان بالدموع ، و يطيل الركوع والسجود ، و كان بين آونة وأخرى يرفع يديه وعينيه إلى السماء و يقول " يا إلهي.. " إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي " ، و على الرغم من العنف البالغ الذي مارسه قائد السجن ، إلا أن بعض السجانة كانوا يشعرون بآلام نفسية حادة ، و تأنيب شديد للضمير ، و هم يشاركون في اللعبة

---

١) عذراء جاكرتا ص ٧٦: ٨٠.

القذرة بأمر رؤسائهم.. و في الأحيان كان بعضهم يتسلل تحت جنح الظلام قبيل الفجر، حيث الجميع نيام ، و يفتح باب الزنزانة ، و ينكب على يدي السجين العجوز ، و يشبعها لثما و تقبيلا و هو يقول:

ـ " أعذرني يا شيخي.. فنحن ننفذ الأوامر ، و قلوبنا تتمزق.. إليك الماء.. و غطاء إضافي..إنني على استعداد أن أفعل أي شيء شريطة ألا يعلم رؤسائي بالأمر. "

و يغمغم حاجي محمد باسما:

ـ ".. إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان.." أنت يا ولدي مؤمن ، لكن الظلمة يُكرهونك على فعل الشر.. و أنا أدعو لك الله بالخلاص.. فأنت سجين مثلي.. لخطايا غيرك. و سوف يحررك الله من إسار العبيد." و هكذا تطوع أحد الجنود و أرسل الرسالة إلى أهل "حاجي محمد" يخبرهم بحقيقة الوضع في سطور قليلة مقتضبة.. و استطاع أحدهم أن يهمس في أذن "حاجي محمد " بما حدث..

و غمغم " حاجي محمد ":

ـ" الظلام الدامس يلف الوجود.. لكن الله يخترق الحجب و يضيء بأشعته السحرية الخالدة التي يخطئها عميان البصيرة.. و اليأس يوشح الكائنات.. لكن الأمل يخفق في قلوب المؤمنين.. و كان قد طلب من " حاجي محمد " أن يكتب قصة حياته كاملة ، فأطاع الأمر ، و كتب كل ما يتذكره ، و عندما قرأها قائد السجن ، استدعاه ، و قال في ضيق:

ـ" إن ثلاثة أرباع ما كتبت عن الحرب ضد الهولنديين.. أتريد أن توهمنا بأنك بطل ؟؟"

ـ " معذرة يا أيها القائد.. فأنا عبد ضعيف من عباد الله، و لا أمن بجهادي.. فالثواب عند الله ، و لكني نفذت ما طلبته مني."

قال القائد في حنق:

ـ" أنتم تزيفون التاريخ "

ـ" نحن ؟؟"

ـ " أجل ، و تسرقون أمجاد غيركم.."

ـ "الأمجاد لا تسرق ، و خاصة إذا كان الناس يعرفون الحقيقة المسجلة في الوثائق..

مازال أبطال الحرب أحياء.."

هب القائد واقفا ، و سأل:

_ " من أجل أي شيء كنت تحارب ؟"

_" جهادا في سبيل الله.."

قال القائد في امتعاض:

_" مادام الله قويا ، فهو ليس في حاجة إلى جهادكم.."

_"لكنه أمرنا به.."

_" الأبطال الحقيقيون هم الذين يحاربون من أجل تحرير أنفسهم و تحرير أراضيهم.."

_" المجاهد الحق ، هو من حرر نفسه من الوهم و الخوف و الشرك قبل أن ينـزل إلى ميدان القتال.."

_" سفسطة فارغة.."

_" و الحرب لا تكون جهادا إلا إذا كان هدفها إعلاء كلمة الله.عندئذ يسعد الناس بالحرية و الكرامة و الأمن.. كلمة الله هي العدل..."

سكت القائد مفكرا ، ثم قال:

_" و كنت عضوا في جماعة ماشومي ؟

_" أجل.."

_" و جماعة ماشومي في قفص الاتهام.." °

_" أعرف أنكم وضعتموهم فيه.."

_" حتى نحمي الوطن من الفساد و الرجعية و العمالة.."

ابتسم "حاجي محمد" قائلا:

_" العمالة ؟.."

_" نعم.. عملاء.. و أنت كذلك ، إنك لم تقدم تفسيرا مقنعا لسفرك للخارج.."

ضحك " حاجي محمد " و قال:

_" أريد أن أعرف العالم، وأستفيد.."

رد القائد ساخرا:

_" تستفيد ، أم تقبض الثمن من المخابرات المركزية الأمريكية ؟.."

_" هل وجدتم في بيتي نقودا تذكر ؟ "

و ابتلع " حاجي محمد " ريقه و قال:

_" لست عميلا لروسيا ، و لا ذَنَبًا لأمريكا.. أنا محسوب على الله.. انا محسوب على الله.."

و شعر حاجي محمد بكف ثقيلة تهوي على وجهه فجأة ، فنظر إلى القائد في أسى و قال:

_" سامحك الله.."

_" كلما أبعدتك عن الحديث عن الله عدت إليه ثانية.."

_" إنه حبيبي.."

_" فليخرجك من هذا المكان إذن.."

_" بالتأكيد.."

_" متى ؟.."

_" عندما يشاء.. يسأل ولا يسأل.. سبحانه.."

قال القائد و رائحة الخمر تفوح من فِيْه:

_" إذا جاء الله هنا حبسته معك في الزنزانة.."

قال "حاجي محمد" في غضب:

_" اخرس.. حاشا لله.."

و ذهل القائد ، و أصابته موجة من الخوف المباغت ، فحملق بعينيه في دهشة ، و لم يستطع أن يتكلم ، و استطرد " حاجي محمد " قائلا ، و عيناه تطوفان بالنجوم الساطعة في السماء:

_" إنه معي..معي دائما..أناجيه.. و أضرع إليه "

و حدث أمر آخر غريب ، فقد شهق أحد السجانة الواقفين باكيا ، فنظر إليه القائد في اندهاش و صاح:

_"خذوا هذا الجندي إلى السجن العسكري.. جردوه من سلاحه.. حالا.. حالا "

وجمد الجنود لحظات و قد شحبت وجوههم ، وعاد القائد يصيح في جنون:

_" خذوه.. خذوه.."

وسرعان ما أمسكوا بالجندي ، و ساقوه إلى الخارج.. كان العرق يتصبب على جبين القائد ، و عاد ينظر إلى "حاجي محمد " الذي وقف صامتا هادئا.. كان وجهه يشع بنور حقيقي.. و كانت هامته ترتفع.. و ترتفع.. أو هكذا خيل إلى القائد المخمور. حتى بدا " حاجي محمد " كفارس أسطوري يهبط من السحاب، ووضع القائد يديه فوق عينيه و صاح:

_" خذوه هو الآخر إلى زنزانته.."

و عاد القائد بعد أن صار وحده يدق المنضدة بقبضة متشنجة و يقول وهو يكاد يبكي:

_" أنا لا أفهم.. لا أفهم.. يا له من عذاب !! "

لم نحاول أن نجتزئ هذا الحوار على طوله لكننا رأينا أنه كاشف عن هوية الشخصيتين المتحاورتين (حاجي محمد العالم المسلم ابن الوطن، والقائد / المحقق / السجان / المحتل ابن الثقافة و الأيديولوجية المتصادمة مع الإسلام ؛ فكرا و سلوكا و عقيدة. يحاول الكاتب " نجيب الكيلاني " أن يأخذنا إلى هذه البؤرة الكاشفة عن شخصية كل منهما الضحية و الجلاد !! لكل منهما فكرة و مواصفاته الإنسانية. ومن ثم، تجاوز الكاتب الملامح أو الصفات الجسدية ، التشكيل الخارجي للشخصية ، و سلط كاميراته على الداخل النفسي أو الروحي لهذين المتصارعين.. و" الصراع هو الشحنة الكهربائية التي تهب الشخصية الحياة خلال أدرمة المواقف... و إذا أُبعد هذا الصراع عن الأحداث " أو سطحت ممارسته السلبية أو الإيجابية في القصص ، فلن يُقَدر لهذه الأعمال النجاح(١)

---

١) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة ص ٢٧ د/كمال سعد محمد ، طبعة مصورة – ١٤٣٣هـ /٢٠١٢م / أسيوط.

".. فالصدق في التعبير إلى جانب الأمانة في التصوير، و الإلحاح على صور الصراع المحتدمة، هي البداية العميقة لجودة الأداء ، فعندما يوظف الصراع توظيفا فنيا ، و فكريا رائعا ، يصبح منبع الإثارة و التشويق.. فيغري بالمتابعة، و يأخذ القارئ أو المتلقي إلى حيث التفكير العقلي و الانفعال الوجداني (١) ".

لكن على الرغم من نجاح الكاتب في رسم ملامح هذه الشخصيات في بعديها الفني و الفكري ، و تأجج الصراع بينهما الذي يكشف عن رؤية كل منهما ، "عالم الدين المسلم "، و الآخر المتصادم معه في الرؤية و التصور (المحقق أو القائد اليساري)، إلا أن الكاتب علا صوته على صوت الشخصيات ، و أضفى عليها من ذاته و خبرته في معارضته للنظام الناصري بقيادة " الزعيم جمال عبد الناصر" و التصور الفكري و السياسي الذي كان ينتظم النظام في سِلْكِه وقتئذ ، فـ " نجيب الكيلاني " كاتب و شاعر و قاص ، و مفكر متأثر بفكر التنظيم السياسي " الإخوان المسلمين" ؛ بل هو واحد من المبدعين الذين كانت لهم تجارب حقيقية في الحياة داخل السجون المصرية، ومن ثم، أضفى على هذه الشخوص من خبرته و تجاربه، حيث اعتقل مرتين بتهمة الانتساب إلى جماعة غير قانونية، و متصادمة مع النظام العام للحكم في مصر !! ، و لعل في عباراته القاسية من مثل قول المحقق عن الله (عز وجل):

[ـ" مادام الله قويا.. فهو ليس في حاجة إلى جهادكم "

ـ" فليخرجك من هذا المكان إذن "

ـ" إذا جاء الله هنا حبسته معك في الزنزانة.."]

ولعل هذه العبارات مما ذاع مما سربه السجناء الإخوان عن شمس بدران " قائد سجون عبد الناصر في الستينيات !! و الذي أشاعوا عنه أنه كان يجاهر بهذه العداوات ، و التطاول البذيء – إن صح – عند التحقيق مع كوادرهم المتهمين بقلب نظام الحكم أو إثارة القلاقل في طول البلاد و عرضها !!.

---

١) آفاق الأدب الإسلامي ص ١٠٩ بتصرف د/ نجيب الكيلاني ـ مؤسسة الرسالة ـ أولى ـ ١٩٨٥ م ـ بيروت.

لذا نجد أن " نجيب الكيلاني " كثيرا مما يقفز صوته فوق صوت الشخصيات، في رسم مثل هذه المواقف في رواياته المتعددة. وهذه المواجهة كشفت عن هذه الرؤية الصدامية بين المتحاورين ، تكشف لغة كل منهما عن وجهته الفكرية ، و رؤيته المذهبية (أيديولوجيته) التي تضبط توجه وتفكيره في الحياة..

هذا الحوار، صنع الروائي من خلاله وعبره حلقة في تسلسل الأحداث، يمكننا القول: بأنه أضاف لبنة في البناء الدرامي للشخصية ما يكشف عن هذا التقابل عن رؤية" الأنا" ورؤية " الأخر"، و استطاع الأديب عبر هذه التقنية وغيرها أن يكشف عن هوية الصراع الحضاري من خلال رصد هذه العلاقة المتشابكة.. " إن صورة " الآخر" و تمثيلاتها ، لا يمكن أن تتضح بمعزل عن صورة " الأنا " و تمثيلاتها (١) كذلك..

إن هذا الفن بطاقاته و تقنياته، هو الذي يستطيع أن يفضح أوهام الذات و انحرافاتها الفكرية و الشعورية، خصوصا حين تسجن الآخرين في انتماءات ضيقة (مذهبية أو عرقية...الخ)، مثلما يستطيع التغلغل إلى أعماق الروح الإنسانية ؛ ليبرز قدرتها على تجاوز هذه الانتماءات ، والدخول إلى عوالم رحبة ، تحرر الإنسان من إكراهات تربى عليها ، عندئذ يمكن المتلقي أن يعايش مكونات أصيلة ، تجمع البشر، و يتبين عبر هذا الفن كيف يتحول الاختلاف إلى رحمة ؟ ، فيؤسس لثقافة ينفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان ، و يحترم ما يميزه ويبلور هويته ، خصوصا حين يتم التعرف على المختلف الذي يغني العقل البشري ويثريه، و يبث الحيوية في العلاقات الإنسانية وينميها ويطورها، ويتحول الاختلاف إلى نقمة ، حين يكون الهدف إهانة الآخر المختلف، وإقصاءه ، كي تؤكد الذات استعلاءها ، حيث ترسم في هيئة من يمتلك الحقيقة المطلقة ، و بذلك يقرأ الآخر قراءة مغلقة على قول واحد ،يرسم صورة مشوهة له ، فتشيع ثقافة الكراهية ، التي تنشر ظلمة العمى ، حيث يتيه فيها العقل ، و تنفلت الغرائز من عقالها ، فتكون النتيجة تدمير الآخر.. مما يعني تدمير الذات !"(٢).

---

١) إشكالية الأنا و الآخر ص ١١ د/ ماجدة حمودة – المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب – عالم المعرفة – عدد (٣٩٨)– الكويت.

٢) السابق ص: ٨ ، ٩.

انظر إلى الكاتب و هو يدبر لقاءً حميما بين الشاب المسلم "أبو الحسن "خطيب البطلة " فاطمة " بنت حاجي محمد إدريس ،عندما هرعت لزيارته في السجن، مروءة منها لأنه سجن بسبب ثورته لغياب أبيها ، كما أنه خطيبها و زوج المستقبل و هي تثق في أخلاقه و إيمانه بقضاياها وأبيها.. انظر إليه وهو يكشف عن مدى ما تتمتع به شخصية الآخر من صلف وجبروت يذيقانه صنوف العذاب في محبسه:

"وفي حجرة الزوار وجدها...

كانت تجلس في لهفة وترقب بثيابها المحتشمة المعروفة، التوتر في حركات يديها، وعلي ملامح وجهها، وسرعة الحركات في أهدابها.

ـ"فاطمة؟؟"

ـ "أبو الحسن؟؟"

لم يستطع أن يزيد، فقد كانت الكلمات محتبسة في حلقه، ولم تستطع هي الأخرى أن تواصل الحديث، فقد سبقت الدموع الكلمات، صافح يدا باردة مرتعشة.. وأخذ يبحث عن الكلمات، إنها هاربة لا تطاوعه، أخذ يبتسم بلا معنى، ويتنحنح بلا سبب... وأخيرا استطاع أن يقول:

ـ "كل شيء يهون..."

ـ "هل انتهى التحقيق ؟؟"

ـ "أجل.. والمحاكمة بعد غد.."

ـ "لا تخف يا أبا الحسن؟؟"

قال وقد شعر بيقين لم يشعر به من قبل:

ـ "لا أخاف إلا الله.."

وتذكر الضراعة المحزنة للجلاد اللعين فشعر بالخجل، ماذا لو عرفت " فاطمة " الحقيقة؟؟ أتراها تحن لزيارته مرة ثانية، وتبقى محتفظة بعاطفتها الجياشة نحوه؟؟ وسمعها تقول:

ـ "لم يعد أبي !"

ـ "حينما أفكر فيما حدث يا " فاطمة "، وأنظر حولي، يخيل إلي أننا في عصر انهيار وانحطاط.."

قال الضابط الجالس بالقرب منهما حينما رآهما يتهامسان:

ـ "ماذا تقولان؟؟"

قالا في نفس الوقت(١) في لعثمة:

ـ "لا شيء...لا شيء.."

ـ "لكنكما تتهامسان...يجب أن أسمع جيدا ما تقولان..."

كان الضابط يتكلم وهو يتصفح جريدة يومية أمامه دون أن يرفع عنهما بصره ، وعاد الضابط يقول:

ـ" الزيارة جعلت لكي يرى كل منكما الآخر ويطمئن عليه فقط...كيف صحتك؟؟ كيف حالك؟؟ ألا تريد شيئا... أنا بخير...أريد بعض الروبيات... كيف حال والدي؟؟ ووالدتي وأخواتي؟؟ هذا كل ما يقال في الزيارات... مفهوم؟؟"

أطرق كل منهما صامتا بعض الوقت، وهما يتبادلان النظرات الصامتة، بعد أن أفسد الضابط عليهما متعة اللقاء، ولاحظ أنهما قد أحرجا واضطربا وكفا عن الحديث، فجمع أوراق الصحيفة، ثم هم بالخروج وهو يقول:

ـ"سأترككما بضع دقائق.."

وقال وهو يخرج من الباب موجها الحديث لأبي الحسن:

ـ"أنت تعرف النظم واللوائح في السجون... أرجو ألا تقع أية مخالفات... وسأقوم بتفتيشك بدقة عقب الزيارة..."

تنهد أبو الحسن في ارتياح:

ـ"الحمد لله..."

وعاد يقول:

---

١) لعل الصواب: " قالا في الوقت نفسه وفي لعثمة ".

ـ"ثقي أنني لن أهتز أو أتخاذل..."

ـ"أنا أعرفك.."

امتلأ قلبه بالرضى والثقة، وعاد يقول:

ـ"يجب أن يصمد الرجال للعاصفة..."

ـ"الأمور تسوء يا أبا الحسن"

ـ"لكل شيء نهاية..."

ـ"والناس يموتون جوعا،أو يأكلهم العذاب والحزن والحرمان خلف الأسوار... والسفالات تملأ كل ناحية..."

قال وقد احتقن وجهه:

ـ"عندما يدوي الانفجار فلسوف يحرق كل الأوبئة..."

ـ"والبراكين يا أبا الحسن قد تقضي علي البريء والمسيء معا..."

ـ"الانفجار المنظم له اتجاه واحد يا حبيبتي..."

وشعر بالخجل بعد أن تلفظ بكلمة "حبيبتي" وارتبكت هي الأخرى،غير أنه استدرك علي الفور وقال ملاطفا:ـ

ـ" في السجن يتعلم الإنسان بعض الألفاظ التي لا تناسب المقام..."

قالت وهي تخفض من نظراتها في حياء:

ـ"لم أتضايق لسماع هذه الكلمة...إنها من أروع الكلمات..."

أفراح النصر تدق بين جوانحه، وفترة السجن بدت أمامه كرحلة ممتعة،وذكري رائعة، إنها طربت لكلمة"حبيبتي" التي أفلتت منه...

قال وهو يشعر بنشوة عارمة:

ـ"سوف نحيا بإذن الله حياة جميلة..."

ـ"وعندما يعود أبي، وتخرج أنت ظافرا من هنا...تكون أجمل وأروع...."

عاد يتطلع إلى وجهها الجميل وهي صامتة، كانت تبدو أجمل من أي وقت مضـــي، يكفيه أن يجلس ويتطلع لهذا الوجه الباهر الطاهر، وتاه في عالمها السحري الجميل،وأخذ يغمغم "وفي ليلي الطويل، تشرق طلعتك علي فأنسي الأرق والعذاب والظـــلام...أيضـــايقك هذا الكلام؟؟وفي الأوقات الرهيبة حيث يتحول الإنسان إلى حيوان للتجارب، وتجرى عليه عملية "غسيل المخ "...تبتسم لي عيناك "أجل والله تبتسم لي عيناك...فأصرخ فيهم:

يا فسقة... يا ظلمة... يا كلاب...وعندئذ أرتمي كالمخدر...لا أشعر بشـــيء ممـــا حولي... وأظل أهيم في حلمي الجميل"حيث الزهور والربيع...وهمسات الربيع يا حبيبتـــي طاهرة تذكرني بحلاوة الحب، وعظمة الله.."

ضرب الضابط كفا بكف، وهو يدخل ثانية ويقول:

ــ انتهت الزيارة..لن تشبعا من الحديث ولو بقيتما طوال النهار.. هيا يا آنسة (١).."

كل هذه الأفكار التي حشدها هنا الكاتب تكشف عن معاناته هو، عما لاقـــاه وهـــو سجين في طغيان صوته علي صوت الشخصية ، وكأنه هو السجين "حاجى محمد إدريس " وهو كذلك الطالب الشاب " أبو الحسن "،هو يحكي معاناته هو لا معاناة الشخصيات هنـــا !! يقول الروائي نجيب الكيلاني:" إن التجربة فعل ذاتي.. ترفده موارد مختلفـــة بعضـــها ينبع من تجارب أخرى لدينا أو لدى الآخرين.. تنمو وتتشـــعب وتتلـــون حتـــى تكتســـب مقوماتها الخاصة، وتصبح كائنا متفردا متميزا برغم ما يشوبها من عناصـــر التشـــابه أو التضاد مع الآخرين.. وربط التجربة بقيمة عليا كالدين أو العقيدة أو المبـــادئ يجعلهـــا ــ إذا ما استقام طريقها وأثمر تفاعلها جديرة بالاستمرارية والنمـــو والفائـــدة... فالإبـــداع الأدبي ليس وحيا يهبط دون سابق إنذار، وليس منبت الصلة في الوقت نفسه عما حوله، وبما يتفاعل داخل الفنان من عواطف وأهواء ومشاعر وما يتحصـــل لـــه مـــن معـــارف وثقافات وفنون وما يقع له من أحداث [٢]"...

****

١) عذراء جاكرتا ص: ٩٤ وما بعدها.

٢)تجربتي الذاتية ص: ٧، ٨ مواطن متفرقة ــسابق.

وفي النهاية، وختاما...

بعد هذه السياحة النقدية والفكرية عبر التحليل، تعرفنا على هذه الرؤية الإبداعية التي تنفتح على أفق إبداعي وفني جديد وهو رواية " المواجهة الحضارية " التي تفتح بابا جديدا للدراسة النقدية لفن الرواية العربية.

ومن هنا، ترصد الدراسة عدة ظواهر إبداعية يمكن أن نعتبرها نتائج للدراسة على المستويين الموضوعي والفني وإن كانت الدراسة تنحو نحوا موضوعيا.

من هذه النتائج:

أولا: توظف رواية " المواجهة الحضارية " كل التقنيات الفنية في عملية تشكيل الفضاء الإبداعي للرواية من مثل بناء الشخصيات والأحداث والمكان والزمان والحوار والسرد بكل طاقاتهما الفنية ومقوماتهما الإبداعية، واللغة وامتدادها وتكثيفاتها وصورها وجمالياتها وإن كانت الدراسة لم تتطلب الإيعاز بذلك والإلماح إليه بحيث لا يمثل عبئا على الدراسة.

ثانيا: تستعرض الرواية ــ على غير عادة أو طبيعة الروائيين الذين يمثلون تيارات فكرية أخرى غير التيار الفكري الذي ينبثق عن التصور الإسلامي ــ جدلية " الأنا والأخر " ضمن علاقاتهما المتجاذبة والمتنافرة، لكن على أرضية المهمة الحضارية التي أسندت إلى الدعاة المسلمين بوصفها مهمة ربانية:" قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١)"، فتحاول " الأنا " إنقاذ "الآخر " والتماس العذر له، مهما بدا فظا أو معاديا أو مخادعا !! فالصراع أو المواجهة كانت على أرضية الإيجابية.

ثالثا: هيمنة الرؤية التصويرية لتشكيل التجربة ومفرداتها الإبداعية، فكأن الروائي كان يحمل آلة تصوير [كاميرا] يتجول بها عبر الوهاد والجبال والوديان والجبال المكسوة بالمروج الخضراء والزهور الفواحة، وكأنه يريد وفق تصوره أن يضفي شيئا من البهجة والإمتاع، على الرغم من سطوة فكرة المواجهة والصراع الحضاري في الفضاء الروائي، وكأنه يحاول أن يخلعنا من الجو العدائي إلى لوحات البهجة والإمتاع !!

---

١ سورة يوسف الآية: ١٠٨.

رابعا: تحول جدلية " الأنا والآخر " من ورحلة الانبهار والاندهاش والعجب إلى المساءلة الحضارية والسياسية لإشكالية التقدم والتخلف وتقديم النموذج لكل طرف عبر فضائه الفكري والوجداني المنبثق من تصوره وإيديولوجيته.

خامسا: تبرز " المرأة " بوصفها أنموذجا يرمز للأنا البانية اجتماعيا وفكريا وحضاريا على غير ما يراه أو يريده لها الكثيرين ممن نهلوا من الآبار الآسنة، أو ممن لم يستسيغوا شرابها النقي الطاهر، ومدى قدرتها على الإبهار الحضاري في عملية الاشتباك التي جرت في لقطات ليست بالقليلة في الفضاء الروائي.

سادسا: التأرجح بين فضاء ين متقابلين؛ فضاء " الأنا " وفضاء " الآخر "، بوصفهما نقيضين يتحركان ويتجاذبان (مغناطيسيا) وتحاول إحدى القوتين لا نقول هزيمة الآخر أو اصطراعه، ولكن تحاول إنقاذه من مرتكسه الحضاري إلى حيث النقاء والانطلاق نحو القيم العليا والمبادئ السماوية الرفيعة التي تأخذ بأيدي التائهين إلى مرافئ الحياة بكل عنفوانها الحضاري بكل طاقاته ومستوياته.

سابعا:ترصد الرواية حركة التجاذب والاشتباك بين " الأنا " و "الآخر "، وتحاول أن ترصد ديناميكية الصراع وتطوره عبر الأحداث المتلاحقة، مما ينبئ عن الفجوة الحضارية بين طرفي المعركة.

ثامنا: عبر هذه التقنية الإبداعية يحاول المبدع الإلحاح على الانتصار لقيم الحق والخير والجمال، وبناء المشروع الحضاري الذي يعنى به الإسلام، ويرعى صناعته، وفق السنن الربانية والطاقات الإيمانية، لتحقيق هدف العمارة في الكون.

تاسعا: تقدم الدراسة – و عبر التحليل الفني للدراسة – خطابين مختلفين ، ربما بلغة قد لا تختلف كثيرا من مستوى إلى مستوى ، و لعل هذا ما نال من انطلاقة الحوار القصصي إلى آفاق الفن المكتنز بطاقات لغوية و فنية تشع جمالاياتها في الفضاء الروائي.. حيث علا صوت الأديب / الراوية فوق صوت الشخصيات و هذا يهدر من قيمة المستوياتية في تشكيل اللوحة الجمالية التي تغمر العمل الأدبي.

الله ــ عز وجل ــ نسأل أن يهدينا إلى الصواب، وأن يجنبنا الخطأ والذلل، وأن يوفقنا لما فيه الخير.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

كمال سعد محمد خليفة

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.. جل من أنزله.
- الحديث النبوي الشريف.

١- الأدب المقارن ــ د/ محمد غنيمي هلال ــ دار نهضة مصر ــ ثالثة ــ د ت ــ القاهرة.

٢- الإسلامية والمذاهب الأدبية ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥م ــ بيروت.

٣- إشكالية الأنا والآخر ــ د. ماجدة حمودة ــ عالم المعرفة ــ عدد (٣٩٨) مارس ٢٠١٣ م ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت.

٤- آفاق الأدب الإسلامي ــ د/ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٨٥ م ــ بيروت.

٥- تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ــ نجيب الكيلاني ــ دار ابن حزم ــ أولى ــ ١٩٩١ــ بيروت.

٦- التجربة الشعرية عند المتلقي ــ د عبد اللاه محمود حسن محروس ــ مطبعة الأمانة ــ ١٩٨٨ ــ القاهرة.

٧- التفسير النفسي للأدب ــ د/ عز الدين إسماعيل ــ دار الفكر العربي ــ ١٩٧٨ م ــ القاهرة.

٨- جمالية الأدب الإسلامي ــ محمد إقبال عروي ــ المكتبة السلفية ــ ١٩٨٦ــ الدار البيضاء.

٩- حساسية الرواية وذائقة المتلقي ــ عبد الباقي يوسف ــ كتاب " المجلة العربية " رقم (١٨٢) صفر ١٤٣٥ هـ / يناير ٢٠١٢ م المملكة العربية السعودية.

١٠- حول القصة الإسلامية ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٩٢ــ بيروت.

١١- حول الدين والدولة ـ نجيب الكيلاني ـ دار النفائس ـ ثالثة ـ د ت ـ بيروت.
١٢- الذات والمهماز ـ د. محمد نجيب التلاوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ٢٠٠٧ ـ مصر.
١٣- رحلتي مع الأدب الإسلامي ـ مؤسسة الرسالة ـ أولى ـ ١٩٨٥م.
١٤- الروائي والأرض ـ وعبد المحسن طه بدر ـ دار المعارف ـ ثالثة ـ ١٩٨٣ ـ مصر.
١٥ ـ الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة ـ د/كمال سعد محمد ، طبعة مصورة – ١٤٣٣هـ /٢٠١٢م / أسيوط.
١٦- صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي ـ د / جميل حمداوي ـ بحث منشور في موقع "دروب "، الإليكتروني".
١٧- عذراء جاكرتا ـ نجيب الكيلاني ـ دار النفائس ـ ثامنة ـ ١٩٨٤ ـ بيروت.
١٨- عضوية الحوار في العمل القصصي ـ مقال د / عبد اللطيف الحديدي ـ حولية كلية اللغة العربية عدد (١١٥) ج ٢ ـ ١٩٩٦م ـ المنصورة.
١٩- فن القصة ـ د / محمد يوسف نجم ـ دار الثقافة ـ بيروت.
٢٠- في نظرية الرواية ـ عبد الملك مرتاض ـ عالم المعرفة ـ عدد (٢٤٠) ديسمبر ١٩٨٨ م المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت.
٢١- في الغزو الفكري ـ د / أحمد عبد الرحيم السايح ـ كتاب الأمة ـ عدد ٣٨ ـ قطر.
٢٢- في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية ـ للدكتور / محمد أحمد الغزب ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ ١٩٨٣ ـ القاهرة.
٢٣- قراءة في أدب نجيب محفوظ ـ د. رجاء عيد ـ منشاة المعارف ـ د. ت ـ الإسكندرية.
٢٤- القصة في الأدب العربي الحديث ـ د. محمد يوسف نجم ـ دار الثقافة ـ ثانية ـ ١٩٦٦ ـ بيروت
٢٥- اللغة وتقنيات البناء القصصي ـ د / كمال سعد محمد خليفة ـ مطابع جامعة أم القرى ـ أولى ـ ٢٠٠٩م ـ مكة المكرمة.

٢٦- المرأة في القصة المعاصرة ــ د. كمال سعد محمد خليفة ــ دار طيبة للطباعة ــ أولى ــ ٢٠٠٣م ــ أسيوط.

٢٧- المعجم الفلسفي ــ إعداد مجمع اللغة العربية ــ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ــ القاهرة.

٢٨ ــ مقالات في النقد الأدبي ــ د / السعيد الورقي ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨١ــ القاهرة.

٢٩- المنولوج بين الدراما والشعر ــ مقدمة الدكتور عبد المنعم تليمة ــ أسامة فرحات ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ د. ت ــ مصر.

٣٠- المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب: علاء عبد المنعم إبراهيم ــ مقال في "المجلة العربية " عدد (٤٢٧) السنة (٣٧) شعبان ١٤٣٣ هـ / يوليو ٢٠١٢ م..

٣١-" ميكانيزمات الحوار في عملية القص " للأستاذ حسن كاوز من مقاله بمجلة الحرس الوطني (السعودية) عدد (١١٠).

٣٢- نحو مسرح إسلامي ــ نجيب الكيلاني ــ دار ابن حزم ــ ١٩٩٠م ــ بيروت.

٣٣- النقد الأدبي: أصوله ومناهجه ــ سيد قطب ــ دار الشروق ــ ثالثة ــ د. ت ــ مصر.

٣٤- الوعي القائم والوعي الممكن ــ بحث منشور ضمن كتاب " البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ــ ترجمة. د / محمد برادة ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ ١٩٨٤م ــ بيروت.

٣٥- الواقعية ــ د / ديمين كرنت ــ ترجمة ــ عبد الواحد لؤلؤة.المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ١٩٨٣ ــ بيروت.

٣٦- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد ــ د / أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥م ــ جدة.